



تجليات الرافد الأندلسي في الحضارة المغربية

ندوة تكريم

الدكتور محمد بن شريفة

عقدت بالتعاون بين مؤسسة ذاكرة الأندلسيين

ومنظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار

شفشاون 14-15 نونبر 2014

تنسيق

الأستاذة رحمة الحضري

الدكتور محمد نجيب لوباريس

منشورات مركز ذاكرة الأندلسيين للنشر







مركز ذاكرة الأندلسيين للنشر

هيأة علمية مغربية تابعة لمؤسسة ذاكرة الأندلسيين. تأسس في فاتح أكتوبر سنة 2017، بقرار من الجمع العام العادي للمؤسسة، بهدف توثيق ونشر الأعمال العلمية المعروضة خلال الندوات المحلية والدولية التي تنظمها المؤسسة، وتشجيع البحوث الجامعية المتخصصة في الدراسات الأندلسية، ونشر الأعمال المحققة لمخطوطات الأندلسيين وإبداعاتهم، والكتابات الموثقة لذاكرة الموريسكيين وآثارهم.





تجليات الرافد الأندلسي في الحضارة المغربية

ندوة تكريم عميد الدراسات الأندلسية

الدكتور محمد بن شريفة

عقدت بالتعاون بين مؤسسة ذاكرة الأندلسيين

ومنظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار

شفشاون 14–15 نونبر 2014

تنسيق

الأستاذة رحمة الحضري

الدكتور محمد نجيب لوباريس

منشورات مركز ذاكرة الأندلسيين للنشر – رقم 3



الكتاب : تجليات الرافد الأندلسي في الحضارة المغربية
تنسيق : ذ. رحمة الحضري
الدكتور محمد نجيب لوباريس
الناشر : مركز ذاكرة الأندلسيين للنشر
الطبع : مطبعة الأمنية – الرباط – 2019
الهاتف : 05.37.72.48.39 – الفاكس : 05.37.20.04.27
البريد الإلكتروني : impoumnia@yahoo.fr
الطبعة : الأولى 2019

الفهرس

تقديم 5

الكلمات الافتتاحية

السيد إسماعيل أبو الحقوق عامل إقليم شفشاون 9

الدكتور مصطفى الزباخ رئيس منظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار 11

الدكتور محمد نجيب لوباريس رئيس مؤسسة ذاكرة الأندلسيين- المغرب 15

الأستاذ عبد الحميد عقار رئيس مؤسسة موسوعة شفشاون ونواحيها 17

الشهادات التكريمية

الدكتور بن شريفة: أستاذية أندلسية على إيقاع أصيل

الأستاذ الدكتور محمد احميدة *21*

الأستاذ الدكتور محمد ابن شريفة المحقق الموهوب

الأستاذ الدكتور قاسم الحسيني *24*

مع أستاذي الدكتور محمد بن شريفة

الدكتور عبد السلام شقور *33*

ابن رشد يقول

شعر مولاي علي الصقلي *37*

بحر العلوم

شعر الأستاذ أحمد السوسي التناني *43*

شفشاون الفيحاء
محمد نجيد 45
شهادة الأستاذ امحمد جبرون 47

البحوث العلمية

الإحياء في الأندلس
الدكتورة عصمت دنديش 53
الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد السعدي الأول
الأستاذ الدكتور محمد رزوق 75
تجليات الرافد الأندلسي في الحضارة المغربية. معجم الموسيقى الأندلسية - نموذجا
ذ. عبد العزيز بن عبد الجليل 95
الأندلسيون في الأخماس وغمارة إقليم شفشاون
ذ. محمد القاضي 105
الأزجال الأندلسية بين محمد بن شريفة وإميليو غارثيا غوميث
الدكتور محمد العمارتي 117
شخصيات مغربية من أصول أندلسية قاومت من أجل استقلال البلاد
ذ.محمد ياسين الهبطي 147
الأديب الموريسكي محمد بن التهامي ابن عمرو الأوسي الرباطي
الدكتور محمد حمزة بن علي الكتاني 157
الحضارة الأندلسية وانصهارها في المجتمع المغربي شفشاون نموذجا
د. أحمد مفريج 169

تقديم

ليس سهلا أن نختزل في كلمات عجلى عطاءات علم من أعلام المغرب والعالم العربي والإسلامي الذي امتدت عطاءاته عبر مسافات زمنية طويلة، وتنوعت أنماط فكره، وتعددت أشكال قضاياه التي تجعل منه "جمعا بصيغة المفرد" **كالأستاذ الدكتور محمد بنشريفة**، واضع اللافتات المضيئة في عدة مدارس أدبية وفكرية ولغوية وتحقيقية، تضعه بحق معلما وهاديا لجيل من أبرز مدارسها مدرسة التراث الأندلسي حيث عد فيها **"عميداً"** بدون منازع.

من هذه القيم المضافة التي أضاء بها حقول الدرس الأندلسي، وبنى في مدائنها رباطات بنشريفية متميزة، جاء تعاون منظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار مع مؤسسة ذاكرة الأندلسيين على عقد هذه الندوة التكريمية لقامة شامخة من قامات فكرنا وعصرنا.

إن الاحتفاء بالدكتور محمد بنشريفة هو في حقيقة الأمر احتفاء بمنارة ثقافية كبرى، وتخليد لمآثرها التي زادت الدراسات الأندلسية، تدريسا ودرسا وجمعا وتحقيقا، وعززت الانتماء لتراثنا الأندلسي الحضاري، وكشفت الوجوه المضيئة لأمثاله وأزجاله.

وإننا إذ نشكر الباحثين والشعراء ومقدمي الشهادات على مشاركتهم في التعريف بنبوغ الأستاذ بنشريفة، فإننا نسأل الله أن يجعل صروحه العلمية التي أفنى عمره في ميزان أجوره.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ صدق الله العظيم.


لا غالب إلا الله


واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا



الكلمات الافتتاحية




وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

كلمة السيد إسماعيل أبو الحقوق

عامل صاحب الجلالة على إقليم شفشاون

إنه لمن دواعي الفخر والاعتزاز أن تحظى مدينة شفشاون، عاصمة الإقليم، وتوأم مدينة غرناطة الأندلسية، بشرف احتضان هذه الندوة العلمية المهمة حول موضوع: **"تجليات الرافد الأندلسي في الحضارة المغربية"** والتي تنظمها مشكورة كل من منظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار وجمعية ذاكرة الأندلسيين. وهو اختيار صائب بكل المقاييس، نظرا لارتباط مدينة شفشاون التاريخي بالأندلس، إذ عرفت المدينة هجرة عدة أسر أندلسية، واستقرارها بهذه المنطقة في حقب تاريخية متفرقة، الشيء الذي وسم مختلف مناحي الحياة بالمنطقة، بمظاهر الحضارة الأندلسية.

وغني عن التبيان أن ما يشهده إقليم شفشاون من مناسبات ثقافية كبرى تعكس دوره الرائد كوجه للمعرفة والثقافة، سيساهم في وضعنا على الخريطة في مجال المساهمة الفعالة في تثمين تراثنا المادي واللامادي، والاشتغال أكثر حول التنمية البشرية، وكل ما من شأنه الارتقاء بالإنسان سلوكا وفكرا، مذهبا وعقيدة. وهذا يدعونا للاعتزاز والافتخار برائد التنمية المغربية ومبدع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية **جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده**،الذي جعل من بلادنا نموذجا يحتذى.

وحضور هذه الثلة من الأساتذة الأجلاء، من أجل إثراء النقاش وتعميقه من خلال مداخلاتهم وطرح أفكارهم حول هذا الموضوع بالذات، ليس إلا من باب التجاوب مع روح وفلسفة الأوراش الواعدة، والإشارات القوية لجلالة الملك حفظه الله، والتي حملها

الدستور الجديد للمملكة. نشكرهم على تكبدهم عناء السفر والانتقال من مدنهم إلى مدينتهم الثانية، مدينة الثقافة والإبداع والفن والتاريخ والمعمار الأندلسي الأخاذ.

إن انعقاد هذه الندوة العلمية اليوم لا يجب أن ينسينا جهود الأساتذة والباحثين الذين تكبدوا عناء البحث والتنقيب في موضوع التراث الأندلسي. فشكرهم واجب، والاعتراف بفضلهم ضرورة. لذا ارتأينا أن نقوم برد الاعتبار ولو جزئيا لواحد من هؤلاء الأفذاذ، ويتعلق الأمر برجل وطني غيور، أغنى الساحة الثقافية المغربية بتحقيقاته وكتبه، حيث اتخذ من تراجم الأعلام وسيلة لترسيخ هوية الحضارة الأندلسية، وحضورها في الحضارة المغربية بصورة فعالة، إنه الأستاذ الفاضل، الدكتور محمد بن شريفة.

إن اللسان لا يمكن أن يفي حق هذا الرجل الفذ، مهما بلغت قدرته اللغوية ومهما كانت براعته في الخطابة والحديث. والقلم نفسه يقف عاجزا عن التعبير، فقد تصعب عليه المفردات أو قد تتمرد عليه المعاني أمام شخص، أجاد وأبدع في مواضيع كانت في حاجة إلى البحث والدراسة. فكان وما يزال سخيا في العطاء. نتمنى له مزيدا من الصحة والعافية.

إننا نفتخر بأبناء هذا الوطن كتابا، أدباء، فنانين، وعلماء، نقدرهم ونثمن إبداعاتهم متيقنين بأنه لا مستقبل لبلدنا دون مثقفيه.

وفقنا الله جميعا لما فيه خير بلدنا العزيز تحت الرعاية المتبصرة والسديدة لمولانا صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة الدكتور مصطفى الزباخ

رئيس منظمة المجتمع المدني الدولية

لقيم المواطنة والتنمية والحوار

يسعدني باسم منظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان لعامل صاحب الجلالة على إقليم شفشاون السيد إسماعيل أبو الحقوق ولرئيس المجلس البلدي بها، السيد محمد السفياني ونائبه الأستاذ نبيل الشليح، ولوزارة الثقافة ومندوبها الدكتور شرف الدين ماجدولين، على كرم الضيافة وفائق الاهتمام الذي أولوه لهذه الندوة. عناية برافد مهم من روافد هويتنا المغربية، وتكريما لرمز مضيء من رموزنا الوطنية، استرشادا بتوجيهات جلالة الملك محمد السادس حفظه الله الداعي السلطات العمومية إلى دعم الرسالة المواطنة والتنموية للمجتمع المدني.

إن منظمة المجتمع المدني الدولية إذ تعقد ندوة "تجليات الرافد الأندلسي في الحضارة المغربية" في مدينة شفشاون بالتعاون مع مؤسسة ذاكرة الأندلسيين، فإنها تستند في ذلك إلى الوعي بالمخزون الاندلسي الغني الذي تحتضنه مدينة شفشاون، وإلى خطتها الاستراتيجية للأعوام : 2013-2023 التي تتضمن برامجها مشاريع تتعلق بالقراءات الاستشرافية لتراثنا الحضاري والاحتفاء بأعلامه، لتعزيز قيم المواطنة الهوياتية والتنموية والحوار، التي عقدنا في إطارها عدة ندوات ومؤتمرات، وأخص بالذكر المؤتمرين الدوليين اللذين عقدا تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس وبتعاون مع منظمة الإيسيسكو عامي 2011-2012.

ومن ثم فإن هذه الندوة تستمد رؤيتها من توجهات المنظمة الاستراتيجية التي تقرأ التراث من منظور مغربي يحفظ للمغرب عبقرية إبداعه، ومن منظور حضاري، ينقله من محطة التلذذ بفردوسه، والانتشاء بأطايب موائده، إلى كشف دلالاته، والاعتبار بعبره. ذلك أن العالم الفيزيائي الإنجليزي إسحاق نيوتن عندما سقطت التفاحة امامه لم يأكلها وينام، بل بحث في علة سقوطها فكان اكتشافه لنظرية الجاذبية المعروفة. وهي في ذلك، أي ندوتنا، لا تنظر إلى التراث الأندلسي باعتباره لوحات خشبية ومتحفا للفرجة السياحية بل ترى فيه تلك الطاقة المتجددة التي تمنحنا جذور الانتماء وأجنحة الطيران لغد متوهج، الوعي بأصالته في غير انغلاق، والوعي بمعاصرته في غير ذوبان.

من منطلقات هذا الوعي الباني يأتي تكريم أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة، الذي يعد منارة متوهجة على طرق البحث في التراث الأندلسي، ولافتة مضيئة لجيلنا الذي تربى في مزرعته الاندلسية، مرسخا بها جهاز مناعتنا ضد الاستلاب، وضد التحديات المهددة لهويتنا الحضارية وذاتيتنا الثقافية. فبفضل هؤلاء ارتقى جيلنا درجات في سلم البحث والمعرفة، لحد وجب القول بمكبرات الصوت : إذا كنا قد وصلنا إلى هذه المراتب فلأننا كنا محمولين على أكتاف هؤلاء العمالقة كالدكتور محمد بن شريفة والدكتور عباس الجراري والدكتور عبد السلام الهراس.

ولابد هنا قبل الختام من أن أستميح جمعية خريجي الجامعات المصرية عذراً، إذا كنا قد سبقناها إلى هذا التكريم الذي كانت تخطط له. فلا نقول مع المثل"لقد سبقك بها عكاشة" وإنما نقول: "نحن روحان حللنا بدنا" وان معظم أعضاء هذه الجمعية قد شرفونا بالحضور هنا.

لا يفوتني أخيراً أن أجدد الشكر لأستاذنا د. عباس الجراري الذي شرفنا بحضوره. وللسيد العامل الذي احتضن هذه الندوة بحرارة المؤمن بدور الثقافة في النهوض التنموي والحضاري لوطننا، فكلما كنا نزوره يلقانا مبتهجا وكأننا المانحون له، فنقول كما قال الشاعر :

تَـرَاهُ إذا ما جِـئْتَـهُ مُتَهَـلّلاً   كأنّكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُه

كما لا يفوتني أن أشيد بالتعاون المتميز مع مؤسسة ذاكرة الأندلسيين ورئيسها الدكتور نجيب لوباريس، وأن أشكر المشاركين كافة الذين استجابوا لدعوتنا، مؤاسينا تعب السفر بنبل الرسالة الوطنية والحضارية التي يؤدونها لهويتنا وحضارتنا.

أسأل الله لهم أجر المخلصين لوطنهم وأمتهم ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾ صدق الله العظيم.

لَا غَالِبَ إِلَّا ٱللَّهُ

كلمة الدكتور محمد نجيب لوباريس

رئيس مؤسسة ذاكرة الأندلسيين

أود بدءا أن أقدم أصدق عبارات الشكر والامتنان الى سعادة عامل صاحب الجلالة على اقليم مدينة شفشاون، السيد اسماعيل أبو الحقوق، الذي تفضل، مع فائض من الأريحية والكرم، بقبول استضافة ودعم ندوتنا هذه .كما أقدم الشكر الصادق الى رئيس المجلس البلدي للمدينة السيد محمد السفياني ونائبه السيد نبيل الشليح على كبير السند، الذي وفراه للمشرفين على جمعنا، والى وزارة الثقافة ومندوبها بمدينة شفشاون، الدكتور شرف الدين مجدولين.

لم تلتئم، منذ سنتين ونصف السنة، إرادة المهتمين بالشأن الأندلسي ولم يؤسسوا مؤسسة ذاكرة الأندلسيين بالمغرب، إلا من أجل صون الذاكرة التاريخية لحضارة مازالت معالمها العمرانية والفكرية بارزة إلى يومنا. ولم تنظم مؤسستنا، بعيد تأسيسها، المؤتمر الدولي بمناسبة مرور أربع مئة سنة على تهجير المسلمين من وطنهم، إلا قياما عند هذا الواجب الحضاري ووفاء بالأمانة التاريخية التي تطوق عنق القيمين عليها. عهد دأبنا على الالتزام به، فنظمنا ندوة في ذكرى الدكتور علي المنتصر الكتاني بمناسبة صدور كتابه "انبعاث الإسلام في الأندلس"، ثم عقدنا ندوة تكريم المناضل الملتزم الكولونيل محمد بركاش. وهاهي مؤسسة ذاكرة الأندلسيين، تحتفي اليوم، في أول عمل مشترك مع منظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار، بعميد الدراسات الأندلسية بالمغرب الدكتور محمد بن شريفة، الذي يعود إليه الفضل في إحداث شعبة الدراسات الأندلسية بكلية الآداب بجامعة محمد

الخامس بالرباط. شعبة، يشهد كل المثقفين، أنها كانت بمثابة المشتل الذي استُنبِتت فيه أغلب الكفاءات الوطنية العارفة بالثقافة والتاريخ الأندلسيين. ولا أخالني مبالغا إن قلت إن جل الأساتذة الحاضرين معنا الآن، هم أنفسهم من خريجي هذه الشعبة، وإما تتلمذوا على من هم خريجوها.

الأستاذ محمد بن شريفة الذي أتيحت لي فرصة الجلوس معه والنهل من معارفه، عبر حلقات نادي الأربعاء، الشعرية، بمنزل أمير الشعر، الأستاذ مولاي علي الصقلي، حفظه الله، فبهرني في الدكتور محمد بن شريفة، ذلك العالم الذي يستحضر دقائق الأمور، وأمهات المراجع، في علوم اللغة والأدب والشعر والتاريخ الأندلسي، بسهولة لا تجارى.

فكل الشرف، لمؤسسة ذاكرة الأندلسيين، أن تكون اليوم محتفية بكم أستاذي الجليل، وكل السعادة بأن نرى الجموع قد حجت من فاس وتطوان والرباط والدارالبيضاء لتكريمكم أستاذنا ، والاعتراف بأفضالكم. حفظكم الله، وأدام عليكم، سيدي، حلل الصحة والعافية والسعادة والهناء. والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الأستاذ عبد الحميد عقار

رئيس مؤسسة موسوعة شفشاون ونواحيها

يشرفني باسمي الشخصي، وباسم إخوتي في مكتب مؤسسة موسوعة شفشاون ونواحيها، أن أحييّ حضوركم البهي، واهتمامكم الإيجابي والمثمر، ومن خلالكم أود أن أتوجه بعبارات الشكر والامتنان لمنظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار، ولجمعية ذاكرة الأندلسيين، على دعوتهم الكريمة للمؤسسة، وتشريفهم لها بإلقاء كلمة تحية في الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة المباركة.

أعبر للمنظمين عن خالص التهنئة والتقدير، اعتباراً لأهمية الموضوع وعمق آثاره وامتداداته. فالرافد الأندلسي يشكل بالفعل مكوناً عميق الحضور والفعالية في الحضارة والثقافة المغربيتين، بل والعربية والإسلامية ككل، منذ القرن الخامس عشر على الأقل إلى اليوم. إن المغرب، وشفشاون ونواحيها في صلب هذا المغرب العزيز، لم يستقبل الأندلسيين المهاجرين قسراً بسبب الإقصاء والطرد ومحاكم التفتيش فقط، بل استقبل مع الإنسان الأندلسي المتمدّن نمطاً كاملاً وجديدا في الحياة والثقافة والحضارة، ونسقاً من القيم والرؤى النبيلة، قوامها التعددية، والتعايش، والتساكن، والتمازج، والإبداع الخلاق.

إن المشروعية الثقافية والعلمية لهذا التراث، تتعزز اليوم بمشروعية دستورية، حيث تم الارتقاء بالتراث الأندلسي الغني بتعدده وعمقه، إلى مستوى الرافد الأساسي من روافد ومقومات الهوية الوطنية الموحدة بانصهار كل مكوناتها.

لقد شكّلت الأندلس، فضلا عن ذلك، مصدراً خصباً وخلاّقاً للإبداع الفني والأدبي، قديماً وحديثاً؛ وبالمغرب نشطت منذ سنوات فكرة استلهام الأندلس موضوعاً ومادةً للتخييل الأدبي والفني. ذلك، يمثّل قيمة مضافة لإعادة اكتشاف التراث الأندلسي وتمثّله في خصوصياته وتعدّد دلالاته. فالتحية واجبة ومستحقّة للمنظمين على هذا الالتفات العلمي والثقافي هنا بشفشاون للرافد الأندلسي.

تتشرف المؤسسة كذلك، بأن تهنئ المنظمين وتعبر لهم عن التقدير العميق على اختيار الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة للاحتفاء به في هذه الندوة الموفّقة. وأعتز أيما اعتزاز بأنني من طلبته، مثلما أقدر بعمق أستاذيته لي ولأفواج من الباحثين والأساتذة من خريجي كلية الآداب بفاس والرباط، الأستاذ بن شريفة عالِم محقِّق ومثقف راسخُ التمكّن والمعرفة بالثقافة العربية، مغرباً ومشرقاً، وباحثا مختصا بجدارة في التراث الأندلسي؛ وفضلا عن كل ذلك، أشيد بفضيلة فيه، هي فضيلة الإنصاف العلمي لجوانب منسيةٍ، أو طالها التهميش، أو توانى الباحثون عن الاهتمام المعمّق بها. فبالرجوع إلى بحوثه وكتاباته الغزيرة والمنتظمة، تحقيقاً وتأليفا وتعقيبا ومراجعة، سنقف على هذا المكوّن في علْم الرجل وثقافته ومنحاه في اختيار مادة التأليف أو التحقيق أو المراجعة العلمية.

أما مؤسسة موسوعة شفشاون ونواحيها، فهي ثمرةٍ مبادرة من نخبة من مثقفي شفشاون ونواحيها، بدعم مشكور من المجلس البلدي للمدينة. إنها هيئة فكرية علمية مستقلة منفتحة على التعاون والتشارك مع الباحثين المختصين والمؤسسات من ذوي الاهتمام المشترك، ومن أهدافها: - إنجاز ونشر موسوعة حضارية ثقافية علمية شاملة عن المدينة ونواحيها، والإسهام في التعريف العلمي بالإبداع الحضاري والثقافي والفكري للمدينة ومحيطها، وفي تنشيط وتنمية البحث العلمي بمسارات هذا الإبداع في ثوابته وتحولاته، ماضياً وحاضراً، والتراث الأندلسي في شموليته موضوع من موضوعات هذا الإسهام.

أجدد التحية والامتنان والتقدير للمنظمين والداعمين لهم، وللمشاركين، والسلام عليكم.

الشهادات التكريمية


واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

الدكتور محمد بن شريفة:
أستاذية أندلسية على إيقاع أصيل

الأستاذ محمد احميدة
كلية الآداب -جامعة ابن طفيل- القنيطرة

أود في البداية أن أتقدم بخالص شكري وعميق تقديري إلى رئيس "منظمة المجتمع المدني الدولية لقيم المواطنة والتنمية والحوار" الأستاذ الدكتور مصطفى الزباخ، ورئيس "جمعية ذاكرة الأندلسيين" الدكتور محمد نجيب لبريس على دعوتهما للمشاركة في هذه الندوة العلمية، التي تنظم تكريماً لأستاذنا الجليل الدكتور محمد بن شريفة، في هذه الديار الشفشاونية الأصيلة، المضمَّخة بعطر التراث الأندلسي الأثيل.

ومشاركتي هي شهادة من طالب لأستاذه، من طالب حظه زمنه ليجلس في رحاب الجامعة أواخر سنوات الستين وبداية السبعين من القرن الماضي، بين يدي علماء وأساتذة أجلاء، أمثال الدكتور عباس الجراري والدكتور محمد الكتاني ومكرَّمِنا العالِم المحقق الدكتور محمد بن شريفة.

كانت محاضرات أستاذنا خلال السنة الجامعية 1969-1970 جزءاً من مقرر السنة الثانية من الإجازة في شعبة اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب، ظهر المهراز بفاس. وشكلت هذه المحاضرات أول لقاء لي بالأدب الأندلسي بشكل عميق. ذلك أن معرفتي بهذا الأدب لم تكن تتجاوز بعض النصوص الشعرية المحدودة، تلقيتها من خلال مادة "النصوص

الأدبية" في المرحلة الثانوية، أو من خلال بعض القراءات الخاصة والمحدودة، كما أن أعلام هذا الأدب ظلت محصورة في أسماء مشهورة كابن زيدون وابن خفاجة وابن شهيد، حتى إذا سمح الزمن بالتردد على محاضرات أستاذنا محمد بن شريفة، انفتحت أمامي والجيل الذي أنتمي إليه، آفاق أوسع للتعرف على هذا الأدب بشكل أعمق، خاصة تلك المحاضرات الممهدة التي التفتت إلى المكونات البشرية للمجتمع الأندلسي، من عرب وبربر ويهود وصقالبة وغيرهم، والصراعات التي قامت بين هذه المكونات، وانعكاس كل ذلك على أدب هذه البيئة الأندلسية المتعددة الأجناس.

لا تذكر الدراسات الأندلسية في المغرب إلا وقرن ذكرها باسم أستاذنا محمد بن شريفة، والمتأمل في المنجز العلمي لهذا الأكاديمي الكبير، يلمس الجهد العلمي الرصين الذي بذله في خدمة الأدب العربي في هذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي. وعشق الدكتور محمد بن شريفة للأدب الأندلسي ليس وليد الفترات المتأخرة من حياته العلمية، بل يعود شغفه بهذا الأدب إلى مرحلة الصِبا. فقد تحدث عن هذا الولع المبكر في الكلمة التي ألقاها في مجلس "الإثنية" يوم تم تكريمه بالمملكة العربية السعودية فقال: *"إنه كان وهو ما يزال طالباً في كلية ابن يوسف في مراكش، يقرأ بعض ما يصدر في المجلات المغربية من دراسات أندلسية، كالدراسات التي كان يكتبها في ذلك الزمن، الأستاذ محمد الفاسي، والأستاذ عبد الله كنون وغيرهما ممن كانوا يكتبون في الموضوعات الأندلسية".*

هذا العشق الأندلسي سيتجلى في تلكم الدراسات المتعددة، للأدب العربي في الأندلس، التي أنجزها أستاذنا حول أعلام أخرجهم من دائرة النسيان، وأبحاث حول قضايا من زمن الامتزاج المغربي الأندلسي، إلى جانب إخراج نصوص وتحقيقها تحقيقاً علمياً مثّل ما عرف به الدكتور محمد بن شريفة من دقة وإحاطة مما بوّأه عن جدارة تلك المكانة العلمية العالية ليس في بلاده المغرب بل بين المهتمين بالدراسات الأندلسية في العالم العربي، بل حتى بين دارسين غير عرب.

وجاء لقائي الثاني بأستاذي محمد بن شريفة، في مرحلة الدراسات الجامعية العليا في بداية سنوات السبعين من القرن الماضي، حيث أحدثت شهادة الدروس المعمقة بكلية الآداب بالرباط، وشكل الأدب الأندلسي والأدب المغربي وحدة متكاملة؛ فالتخصص في الأدب المغربي يقتضي فتح نافذة على الأدب الأندلسي، والتخصص في الأدب الأندلسي يحتم الإطلال على الأدب المغربي. ولما كنت أحد الطلبة الذين اختاروا الأدب المغربي تخصصاً تحت إشراف أستاذنا عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، فإن هذا الدرس تضمن مادة الأدب الأندلسي، باعتبار أن الأدبين معا، يعتبران في واقع الأمر أدباً واحداً، خاصة في المراحل التاريخية التي كانت الأندلس تحت حكم المغاربة.

اختار أستاذنا محمد بن شريفة أن نعمق معرفتنا بالأدب الأندلسي في هذه المرحلة الجامعية، من خلال الدراسة النصية، فخصص تلك اللقاءات العلمية لتحليل النصوص. فكانت انتقاءاته انتقاءات خبير، سمحت بالتعرف على نصوص متنوعة وأساسية لمعرفة أساليب الكتابة وخصائصها، من خلال مقامات ورسائل ومقدمات بعض الأصول الأساسية في الأدب الأندلسي.

لقد كان لقائي بهذا الأدب في مرحلة الدراسات الجامعية العليا، فرصة للاستفادة من خبرة أستاذنا بشكل أكبر، حيث عدد الطلبة محدود جداً، لم يتجاوز العشرة، وبالتالي تتاح الفرصة للجميع للمشاركة من خلال عروض نظرية أو تحليل نصوص، وقد تتعدد هذه المشاركة أكثر من مرة، مما سمح لنا بالاحتكاك بعدد غير قليل من المصادر، والتعرف على الكثير من المراجع، تحت إشراف صارم، وحرص كبير، وتنخيل دقيق، اختير له مُنخل صُنع في الصين، على مقاس عيون أهلها، فكان العبور يتم بحسبان.

الاحتكاك بالنصوص الأدبية الأندلسية في تنوعها، أثر في تشكيل ذوقنا الأدبي، بل يمكن القول، بالنسبة لي على الأقل، إن هذا الأدب قد أغراني بالرحيل إلى بيئته. كانت رغبتي قوية - وأنا يومئذ في مَيْعة الشباب- في الوصول إلى موطن تلك الشاعرة التي تتصدر مجلسها الأدبي، وقد أسدلت على كتفيها شَالَها الذي خطت عليه شعراً يقول:

أنـــا والله أصلـــح للمعـــــالي وأمـــشي مـــشيتي وأتـــيه تـــيها
أمكن عاشقـــي من صحن خـــدي وأمنـــح قبلتـــي مـــن يشتهيـــها

وأغرتني "الزهراء" حيث "الأفق طلق ومرأى الأرض قد راق"، وما اطلعت عليه من وصف لقصر الحمراء، ومئذنة الخيرالدا، وهندسة جامع قرطبة. فعبرت إلى العُدوة الأخرى أوائل سنوات السبعين، وفي ذاكرتي عبور ابن تاشفين؛ وكلما حللت بأحد الأماكن أو المآثر التاريخية، تردد في أعماقي ما قاله ذلك الشاعر الأندلسي (ابن عبدون):

الدّهر يَفْجَعُ بعد العين بالأثَرِ فما البكاءُ على الأشباح والصُّوَرِ

ومعه تحضر صورة هذا الأندلسي الذي تتلمذنا له داخل الجامعة المغربية، يوم كانت هذه الجامعة تحتضن أساتذة علماء، استطاعوا أن يُعطوا للأستاذية معناها الأكاديمي الحق، المشرب بروح وطني عميق. لقد كان الدرس الأندلسي عُقاراً رفيعا، سقانا أستاذنا كؤوسه دِهاقاً، سريانُه بين الحنايا، يزيد مع الزمن عتاقه.

أستاذي الجليل، هنيئاً لكم منجزكم العلمي الذي عذبت مشاربه، وأكسبكم بين الأكاديميين حمداً وثناءً، وجعل الباري أيامكم مواسم بواسم، وألبسكم ثوب عافيته مرفّلا، وخذها من "حميدة" تحية إكبار بلسان الحُبر والحَبر.

الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة المحقق الموهوب

الأستاذ الدكتور قاسم الحسيني
كلية الآداب - جامعة محمد الخامس. الرباط

أشعر بسعادة تغمرني وأنا أشارك في تكريم أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة، الذي قدم الكثير للجيل الذي أنتمي إليه. إنها حقا لحظة مؤثرة مفعمة بإحساس مشبع بالحب والاعجاب، مقرونين بتقدير واحترام. لا أخفيكم أنني حين اقترح علي تقديم شهادة تهيبت لدرجة جعلتني أميل باتجاه الإحجام، لا لشيء سوى إيماني بأن تقديم أية شهادة أمر يحتاج إلى معرفة دقيقة وشاملة بصاحبها، أما والأمر يتعلق بشهادة في أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة، فقلت مع نفسي بأن شروط تقديم الشهادة فيه تنقصني، ثم عاودت التأمل وقلت: هل يجوز أن اشهد في حق علم من أعلام نبلائنا[1].

أنا لم احظ بمرافقته بمقدار يعطيني هذا الحق، ولم احتك به لأعرف خباياه وتفاصيل أخباره، لكن سرعان ما اهتديت إلى جواب طمأنني حين بدأت تفاصيله تنثال علي انثيالا، وبدا شريط العلاقة يمر أمام ذاكرتي. كانت بدايته في سنوات السبعين من القرن الماضي وبالضبط سنة تسع وسبعين وتسع مائة وألف، حين كنت أهيء بحثا لنيل شهادة الإجازة في الأدب العربي تخصص أدب أندلسي بفاس. وقتئذ عرفت، ولم أكن على علم من قبل، بأن أستاذنا المحتفى به اليوم، متخصص في الأدب الأندلسي، وعلم من أعلامه، وكاشف

---

1 - أخذت هذه التسمية من تقديم أستاذنا محمد بن شريفة لكتابه، أبو مروان الباجي الاشبيلي ورحلته إلى المشرق ويعني بالنبلاء نبلاء العلم، وهي تسمية أخذها أستاذنا عن الحافظ الذهبي. انظر التقديم ص :3.

لكنوزه وأسراره. حينها هممت وتممت وكأن الأمر يقتضي مني البحث عن حجة لإقناع من أتحدث إليهم بمعرفتي له حتى تقبل شهادتي...

إن تفاصيل الجواب لم تتأخر لطمأنة المتحدث إليهم، وتفيد بأنني أعرف أستاذي محمد بن شريفة معرفة قد تؤهلني للإدلاء بشهادة في حقه، تفاصيلها بين صفحات أعماله الموثقة والمحققة، فيها خلصت إلى رسم شخصيته المتفردة جعلتني اسمح لنفسي بنعته ووسمه بصفة تناسب انجازاته العلمية، فقلت : إنه المحقق الموهوب والموثق المقتدر ... هكذا عرفته في أعماله منذ ما يقرب من أربعة عقود، في وسطها أو قبل ذلك بقليل شرفت بلقائه والتتلمذ عليه.

فثبت عندي تطابق بين الحالتين : حال معرفته في أعماله بحال معرفته بذاته وشخصه. عرفته هادئا في طبعه وطريقة كلامه، وديعا في سلوكه وتصرفاته، متواضعا مع طلابه، لا تفارقه الابتسامة. إذا جالسته أمتعك، ومتى سألته أفادك، وإذا ساجلته أقنعك. قوي الملاحظة، دقيق النظر فيما يعرض عليه. كذلك عرفته من قبل في أمر التحقيق الذي تمرس به، إن عدت إليه ستذهلك الدقة الموسوم بها في ضبط المتن وتنظيم الهوامش، ناهيك عن الحس المعرفي والعلمي الذي لا يفارقه، وهو يستجوب قرينة تدل على مراده، وفحص لفظ يوصله إلى مقصده. هذا هو أستاذنا المحقق الموهوب... إذا حقق نصا أدبيا يشفي غليل قارئه، ويضيء سبيل دارسه، يفك معماه ويحدد أصله وفصله، بالضبط المتناهي، والسند الذي إلى غايته ينتهي.

ولشهادتي هذه، في الدكتور محمد بن شريفة، أربعة مكونات:

المكون الأول:

تعالوا معي نستمتع بإحدى الروائع التوثيقية للمحتفى به، في فصل من فصول كتابه "أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة"، حين كان يتابع كلام صاحبه في روضة الأديب في

التفضيل بين المتنبي وحبيب، الذي كان يقص حكاية ملخصها[2]: أن قوما أدباء خرجوا من مجلس المتوكل ببطليوس وقد أجروا ذكر حبيب والمتنبي حتى كثر في التفضيل بينهم الصخب، ومال بهم حب التفضيل عن الطرب، فقال بعضهم ميلوا بنا إلى رجل جاهل نجعل كلامه في ذلك فالا، فأيهما أجرى الفأل على لسانه أجمعنا على إحسانه واستحسانه، فخرجوا متناحين خارج المدينة وإذا بحراث يحرث، وكان ذلك أول الربيع، والأرض ترفل من الزهر في مثل الوشي الصنيع، فقالوا له وهم يظنونه جاهلا وعما انتبهوا نائما غافلا، أيها الحراث، أي الرجلين أشعر، المتنبي أم حبيب؟ فركز عصاه وقال: اسمعوا مني وخذوا عني، أشعرهما الذي يقول:

لك يا منازل في القلوب منازل　　　أقفرت أنت وهن منك أواهل

فاستنبلوا منه ما استجهلوا، ورفعوا منه ما وضعوا، وفكروا عندما انفتلوا عنه ورجعوا، وقالوا: والله ما بدأ بهذا القصيد إلا لمعنى مفيد، وما رمى عن قوسه إلا بالسهم السديد، فكشف لهم الفكر وأبدى لهم الذكر، إنه أراد قول أبي الطيب في أثناء القصيدة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص　　　فهي الشهادة لي بأني كامل

ويحضر أستاذنا محمد بن شريفة بعد انتهاء الحكاية معلقا[3]: لم أقف على هذه الحكاية في مكان آخر، ولم يشر المؤلف إلى حكاية مماثلة تحكى عن المعري، وهي أن الشريف المرتضى، كان يبغض المتنبي ويتعصب عليه، فجرى يوما بحضرته ذكر المتنبي، فتعصب وجعل يتتبع عيوبه، فقال المعري لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله: لك يا منازل في القلوب منازل.. لكفاه فضلا. فغضب المرتضى، وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه،

---

2 - انظر الفصل الرابع: روضة الأديب في التفضيل بين المتنبي وحبيب ص : 205-206 من كتاب أبي تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة للدكتور محمد ابن شريفة ط. دار الغرب الاسلامي

3 - نفسه ص : 206 هامش رقم 19.

وقال لمن بحضرته: أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة، فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكرها، فقيل : النقيب السيد أعرف فقال: أراد قوله في هذه القصيدة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

إن هذا التعليق من أستاذنا محمد بن شريفة يفيد توفره على حس توثيقي، وبعد معرفي في نفس الآن، من وظائفه إغناء النص وفتح مجال مساءلة الرواية بإمكانية وجود غيرها وإن كانت المقصدية واحدة.

المكون الثاني:

تتعدد روائع الأستاذ محمد بن شريفة في مجال التحقيق والتوثيق، حاملة معها ما يفيد الدارسين، فاتحة لهم مجال التأمل، كما قد تفضي ببعضهم أحيانا إلى تأسيس حكم نقدي حول هذه الظاهرة أو تلك. ففي روضة الأديب في التفضيل بين المتنبي وحبيب السالف الذكر ما يدعم هذا الزعم، جاء فيه[4]: "*بديء الشعر بكندة وختم بكندة، أي بديء بامرئ القيس وختم بأبي الطيب لأنهما كنديان*" انتهى قول صاحب روضة الأديب ليأتي تعليق أستاذنا في الهامش رقم 23 من الصفحة ويضيف رأيا استقاه من جذوة المقتبس فيقول: أضاف الأندلسيون إليهما كنديا ثالثا هو الرمادي مستحضرا قول الحميدي في كتابه "جذوة المقتبس" فيقول عند ترجمته ليوسف بن هارون الكندي الرمادي " *ونفق عند الكل حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون: فتح الشعر بكندة، وختم بكندة، يعنون أمرأ القيس والمتنبي ويوسف بن هارون، وكانا متعاصرين*"[5].

ليس المهم لمن هذا القول أو ذاك، لكن المهم أن يصدر، والحديث يدور عن واقع حال الشعر الأندلسي في علاقته بالمشرقي، عن بداية الشعر ونهايته، إذ امتدت النهاية

---

4 - المصدر السابق ص : 208

5 - نفسه

ليشترك فيها الأندلسي مع المشرقي، فالدارس في اعتقادي قد يؤسس بالمقولة السابقة حكما نقديا مدعما بحجة، على أن الشعر الأندلسي في رأي الخبراء من أهله، والحميدي وأحد منهم، شعره له شأنه ومكانته لا تقل عن تلك التي للشعر المشرقي بزعيميه الجاهلي والعباسي.

إن استدعاء هذين النموذجين من تدخل أستاذنا في عملية التحقيق: تحقيق النص، ليسا مقصودين لذاتيهما، وإنما أحضرتهما من أجل إظهار علو كعبه، وتقديم شهادة فيه، شهد بها التاريخ وسجلها له في سجل العلماء، وأنا فقط أذكر بها، من باب قول الله عز وجل: "وذكر فإن الذكرى تنفع المومنين"، مفادها أن الأستاذ محمد بن شريفة محقق موهوب في نفس الآن.

المكون الثالث:

إن ولع المحتفى به في تتبع السند بقصد إثبات الروايات الشعرية شديد للغاية، لا يجاريه أحد، على الأقل في الغرب الإسلامي. انظر معي كيف يستنطق كتب التراجم والبرامج والفهارس والرحلات، ليبدع في رسم خريطة لرواة شعر أبي تمام ومن بعده لأبي الطيب. لقد تتبع رواية شعر أبي تمام موصولة السند حتى القرن السابع الهجري[6]، حملها أولا البغدادي أبو اليسر الرياضي، وتلاها بعده رواة آخرون وصل عددهم إلى ثمانية. وتأتي رواية ابن خير من ثلاث طرق، مع اختلافات بينها بسيطة، كأن ينضاف راوية إلى طريقة ويختفي من أخرى ليعوضه آخر، كما في الرواية الثانية التي ورد فيها عبد الملك بن سراج وجعفر بن محمد بن بكي، ويأتي مكانهما في الثانية الأعلم الشنتمري وأبو بكر محمد بن عبد الغني ابن فندله، وفي الطريقة الثالثة يغيب الأعلم الشنتمري ويعوض بالعز بن تقنة، ثم ابن أبي الخصال، لكن جميعها تنتهي لابن خير. إلى جانب روايات أخرى لكل من الأشبيلي المنبوز باللص وابن الآبار وابن أبي الربيع[7].

---

6 - نفسه ص 10

7 - نفسه ص 11 و24 -25 – 26- 27- 29 -31

أما رواة شعر المتنبي فيذكر رواية ابن خير في ست نسخ، متبوعة برواية المصحفي (أبو بكر) في خمس نسخ، مع فارق في الرواة من حيث العدد بينهما[8] وكلها أسانيد من فهرسة واحدة، هي فهرسة ابن خير..

إن ملاحقة السند وضبطه عملية شاقة تتطلب النفس الطويل أولا، وسعة الاطلاع ثانيا، وهما ميزتان متوافرتان عند أستاذنا محمد بن شريفة، يضاف إليهما تمرسه وخبرته وتجربته في المجال.

المكون الرابع

أما العنصر الرابع المكون للشهادة فتتقدمه انحناءة إجلال وإكبار مني لأستاذنا الدكتور محمد ابن شريفة على العمل الموسوم بالدقة المتناهية في بناء وكتابة سيرة أبي مروان الباهي الإشبيلي[9]. كان الدافع إلى كتابتها - حسب قول كاتبها- هو قراءته لترجمة الرجل في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك، وما تضمنته من تلخيص للرحلة التي قام بها أبو مروان إلى المشرق[10]...

دعنا من البحث عن الدوافع والأسباب التي كانت وراء كتابة السيرة إلى تأمل السيرة ذاتها، من حيث بناؤها والمصادر المعتمدة فيها، وموقع بني الباجي بإشبيلية منها...

يبدو لي أن بحث أستاذنا عن مصادر لكتابة هذه السيرة كلفه كثيرا من الجهد، ووقتا ليس بالقصير. لكنه كان جهد الخبير والعارف بسير الرجال ومناهجها، خصوصا إذا تعلق الأمر بالأندلسيين الذي يعي أخبارهم جيدا، ويسلك السبيل إليهم بيسر واقتدار.

فقد كان للخبرة دور حاسم وجلي في تجاوز ما يمكن أن يكون اعتراه من صعوبات، وهو يبحث عن العناصر المطلوبة. كان يعرف مواطنها، لم تكن لتستعصي عليه، بل كانت

---

8 - نفسه 99-104

9 - انظر تقديم ص 3

10 - نفسه

تأتي منقادة بعد أن أحست به خبيرا. استوعب خريطتها فصار يجول ويصول فيها. كانت الطلائع الملهمة الأولى من الذيل والتكملة[11]، وما احتواه من ملخص رحلة الباجي إلى المشرق، ثم تلتها قصص وأخبار أخرى كان أصاحبها اركنوها في زاوية من زوايا مؤلفاتهم التي لم تكن على مستوى واحد أو في تخصص واحد، بل توزعت ما بين كتب التراجم والفهارس والبرامج وكتب الرحلات والتاريخ. وهذا يعني أن صاحب السيرة كان قد حظي بعنايته باعتباره علما من أعلام النبلاء كما سماهم الحافظ الذهبي، على حد ما يذكر أستاذنا المحتفى به، ويعني الذهبي بالنبلاء نبلاء العلم[12]، وخلف الحظوة والعناية جاءت المادة التي شكلت عنصر انجذاب أستاذنا إلى كتابة هذه السيرة.

إن السيرة تحققت فيها العناصر المطلوبة، فجمعت من الأخبار والأحداث وما ارتبط بها ما كان متفرقا في غيرها من المصادر، بفعل عالم مقتدر ومحقق موهوب. وهكذا جاءت سيرة أبي مروان الباجي[13] مبهرة خلافة تحكي علو كعب كاتبها على النحو الذي قصدت تقديمه في شهادتي.

بالرجوع إلى كتابة سيرة أبي نوار الباجي، وفي نهايتها تحديدا، نجد بانيها يشيد في منتهاها بناء عجيبا، ويقيم تشجيرا محكما ومترابطا حدد فيه نسب الباجي من جهتي الأب والأم ... ويدل هذا التشجير، إن كان الأمر محتاجا إلى دليل، أن واضعه مهندس معرفة في

---

11 - نفسه

12 - نفسه

13 - *لم أرد أن أذكر في متن هذه الشهادة محتوى السيرة التي كتبها أستاذنا محمد بن شريفة خوفا من الخروج عن الموضوع. لكن أشير في هذا الهامش إلى جملة من العناصر التي احتوتها هذه السيرة وهي الحديث أولا عن أسرة الباجي وتتبع أخبارها العلمية والسياسية وغيرها وذكر إمارتهم باشبيلية. ثم خصص حيزا مهما من الحديث عن حياه صاحب السيرة وأنشطته العلمية داخل الأندلس وخارجها مع الإشارة إلى نبوغه المبكر ثم رحلته إلى المشرق مع رفقة مميزة في السيرة أيضا حديث عن شيوخ أبي مروان وتلاميذه الخ... انظر: أبو مروان الباجي ورحلته إلى المشرق. مجلة دعوة الحق العدد الخامس 1420هـ 1999م.*

النسب بارع، أبدع في تخطيطه وتفنن وانتهى إلى وضع صاحبه على رأس شجرة تحكي جذورها وأغصانها فصله وأصله وما احتداه.

إننا فعلا أمام علم من أعلام فكرنا العربي وأدبه، أجدد انحناءتي له إجلالا وإكبارا، وأدعو له بدوام الصحة والعافية وطول العمر.

مع أستاذي الدكتور محمد بن شريفة

الدكتور عبد السلام شقور

إنه لمن دواعي الشكر والامتنان، أن ينعقد هذا الجمع المبارك، للاحتفاء بأستاذنا، الدكتور محمد بن شريفة، عميد الدراسات الأندلسية. ويشاء الله، إلا أن يحمل إرادة المشرفين على هذا التكريم، إلى عقده في مدينة شفشاون، المدينة الأندلسية المغربية، وفي التاريخ الذي تنعقد فيه ندوة أخرى في نفس المدينة هذه، لدراسة الروافد الأندلسية في الحياة المغربية. فنحن إذا في عرس الأندلس. ولما لا، فالأندلس في وجداننا وفي مطعمنا وملبسنا وفنوننا ولغتنا. فإذا كانت المرحلة الأولى من تاريخها انتهت بدخول النصارى غرناطة، فإن المرحلة الثانية في حياتها تبتدئ من هذا التاريخ، ويسهر على حفظها الدكتور محمد بن شريفة وأجيال من الباحثين.

إن الاحتفاء بعالم من علماء الأمة ليس من باب التفضل عليه، وإنما من باب واجب الاعتراف بفضله. والفضل فضل الله، يوتيه من يشاء من عباده، ويجريه على يد من يشاء من خلقه.

اتخذ أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة الأندلس مشروعا علميا وحضاريا. شرع في إنجازه منذ نصف قرن، بكتابه القيم عن ابن عميرة. ومنذ ذلك التاريخ وهو معتكف في مكتبته، منكب على عمله، في إنجاز مشروعه العلمي والحضاري الكبير، وهو مشروع يروم بعث أمة طواها الزمان، بعثها عبر أعلامها من مشاهير العلماء وتآليفهم التي تناثرت أوراقها وأتلفتها الرطوبة.

أستاذنا زاهد في ما يتسابق الناس إليه. يعيش مع الأندلس والأندلسيين. وقد احتضنها فأصبحت الأندلس كل حياته، وما أعتقد أنها كانت تغيب عن باله، في حله وترحاله. بعلمه الغزير، وحرصه العلمي النادر، وهو في ذلك في حال من يقول: إذا فرغت من قراءتك، وفهمت ما فهمت، فاسأل نفسك في ما فهمت، وأعد قراءة ما قرأت، واضرب أول الكلام بآخره، وآخره بأوله، ولا تسلم بأمر حتى يسلم لك الكلام نفسه. وقد تيسر له بذلك إحياء أعلام كثيرين. وقديما قالوا: من أرخ مؤمنا فكأنما أحياه.

سار الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة على نهج من سبقه من كبار علماء الأمة، في حياته العلمية، وكذا في صلته بطلبته الباحثين، في حسن السمت وشدة الوقار، وغلبة الهيبة، حتى أننا كنا وما نزال، نحن معشر طلبته، لا نجرأ على الحديث إليه إلا بعد ابتسامة لطيفة منه، تشجيعا على ذلك، فهو كما قال الشاعر:

يغطي حياء، ويغضي من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

لقد بهرت الأندلس العالم بعلومها، وآدابها، وبفنونها. فأقبل العلماء، من عرب ومن عجم، على دراسة آثار الأندلسيين. وتباينت مناهجهم واختلفت أهدافهم، وتحصل من بحوثهم ركام من التأليف والأبحاث، بأشهر اللغات. ويمكن الحديث عن ثلاثة اتجاهات أو مدارس:

- **المدرسة الاستشراقية**: وانصبت اهتماماتها على مجالات معينة، منها الفلسفة والتصوف.

- **الاتجاه المشرقي**: ويمثله المصريون، لاهتماماتهم بالتاريخ والأدب في الأندلس.

- **المدرسة المغربية**، مع كونها لم تظهر إلا منذ نصف قرن، ،فإنها قدمت الكثير في مجالي التحقيق والدراسة. وهي تقدم صورة منصفة. وقد عنيت بالتحقيق والدراسة، وأبرز أعلام هذه المدرسة المغربية في الدراسات الأندلسية، أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة. فعلى مدى أكثر من نصف قرن، نشر من الكتب والأبحاث، ما لا يسعف الوقت لإحصائه.

- ولهذا، كانت جهوده العلمية مؤسسة لمشروع علمي متكامل، ذي أهداف محددة، قائم على دعامتين، أولاهما تحقيق النصوص، مع الاهتمام الخاص بتلك التي كانت غائبة عن الدارسين، ومنها نصوص تعود إلى القرنين الثامن والتاسع. فاتسع بعمله هذا، مجال الدرس الأدبي، واستوجبت آفاقه مراجعة الدراسات الأدبية السابقة.

- أما الدعامة الثانية، فتتمثل في التعريف برجال الأندلس بالترجمة لهم، وبمراجعة كل تحريف أو تقصير في ترجماتهم السابقة. ويتبين من هذا كله، أن مشروع استاذنا الدكتور محمد بن شريفة، يؤسس لدراسات تقوم على أسس سليمة، تعتمد التوثيق السليم، والنص السليم.

- وبعد، فليس غرضنا في هذا المقام تفصيل الكلام في كل ما وردنا من أستاذنا، وحسبنا الإشارة إلى الخطوط العريضة منه.

إن المغرب بلد معطاء، كما يشهد به المؤرخ الكبير ابن عبد الملك المراكشي، وإنجاب العلماء الذين كان وما يزال لهم الشفوف على أقرانهم، تشهد بذلك رحلاتهم الحجازية، وتنطق به في زمننا المنابر العلمية، التي تؤكد ما ينشره المغاربة في مختلف الفنون. لأجل ذلك وجب علينا وعلى المسؤولين بالثقافة عندنا، ووسائل إعلامنا، العناية بعلمائنا وبآثارهم، تربية لهؤلاء الأجيال، وتعزيزا للروح الوطنية، وبعثا للنفوس المتشككة.

لَا غَالِبَ إِلَّا اللّٰه

ابْنُ رُشْدٍ يقُول

شعر مولاي علي الصقلي[1]

قراءة وضبط النص: عبد اللطيف لوباريس

أَسمِعتَ مِن أَعلَى الأَعَالِـي، مِنْ بَعيـدْ

صَوتِـي أَنَا؟ إِنِّي بن رُشْـدٍ الحَفيـدْ

مِـن بُرج عِلِّيِّيـنَ أَحكي... يَـا لَـهُ

بُرْجـاً، كَمَا أمـرَ الالَهُ بِهِ، عَتِيـدْ!

كَـمْ مُقْتَـفٍ آثَارَنَـا وَكَأَنَّـنَـا

فِي بُـردِ شَيخٍ عَاشَ يَقفُوهُ مُريـدْ

الدِّيـنُ عُدَّتُنَـا الأَسَاسُ وَدُونَـهُ

مِمَّـا بَنَـاهُ اللهُ، قَائِمُنا قَعِيـدْ

لا وَعْـدَ أَغْـرانَا، ولاَ كَـانَ الـ

ـمُـخِيفَ المُسْتَفِـزَّ لَنَـا وَعيـدْ

---

1 - هذه قصيدة عصماء أبدعها الفقيه العلامة الأديب المبرز المنعم بكرم الله الشريف مولاي علي الصقلي الحسيني، بمناسبة تكريم عميد الدراسات الأندلسية الدكتور محمد بن شريفة بمدينة شفشاون سنة 2014. وكان نصها، الذي طلب مني النظر فيه، والمكتوب بخط يد الشاعر، يستلزم، من طرف المشرفين على إخراج هذا الكتاب، ضبط كلماته، وكتابتها كما أرادها الشاعر، من دون تحريف، صيانة لجمالية النص ومقاصده، خاصة وأن بعض الكلمات الواردة في القصيدة قل في الوقت الحالي استعمالها، إما بالمعنى أو باللفظ.

العقـــلُ لاَ الوَهمُ السَّخِيـــفُ إمَامُنـا

وَهْو الصِّرَاطُ المُجْتَبَى، وَهْوَ الرَّصِيـــدْ

هُوَ، مَا الخِلاَفُ طَغَى، وَأَوْجَعَ شَوْكُـهُ

حَكَمٌ، إذا مَـا نَحنُ أَنْصَفنـا، سديـدْ

يَنفِـي وَيُثبِـتُ، مُستَخِفـاً تـــارَةً

هُوَ بالنُقـول، وتَارةً هُـو مُستَجِيـــدْ

لاَ يَرتَضِـي في سَعْيِـــهِ، إمَّا[2] سَعَـى

مُستفهِمـاً مُتَطَلِّعـــاً، إلاَّ الــوَئِـيدْ

يَجْلُو الزُّوَّانَ[3]، أَليسَ صَافيَ الحَبِّ مَـــا

نَهْفُو لِمَكسَبِهِ، وأَفضَلَ مَـا نُريـــدْ؟

هُو عندَنا السَّنَدُ الصَّحيحُ، نَسُودُ مَـــا

هُو، إن سَمَا بَحثـاً وتَنْقِيباً. يَســـودْ

أَوَمَا لَـــه يُقضَـــى بِنصرٍ بَاهِـــر

عندَ احتِدَامِ الخُلْفِ مَيدانـــاً، أَكِيـــدْ؟

أَوَلَيسَ عُمـدَةَ كُـلِّ إفْتـــاءٍ عَلَـــى

حق، ولَوْ حَق الضَّبابُ بـِهِ، مَشِيـــدْ؟

---

2 - هذا استعمال نادر لكلمة "إما"، ورد في قول الله سبحانه وتعالى في سورة الاسراء الآية 23: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريما"

3 - يصور الشاعر العقل الإسلامي السليم تصويرا بديعا في غاية الروعة، مثله مثل من يزيل الزؤان (وهو النبات الذي يخالط الزرع عند النشوء) حتى لا يبقى إلا الحب، صافيا من الزوائد.

حُسنُ العُقُــولِ هُوَ المَتَــاعُ بِعَيْنِــهِ

لاَ حُسْنُ مَن دَانَ الجَمَالُ لَهُنَّ، غِــيدْ

إنْ يَبْــلَ ذَا أَثَــراً فَـذَاكَ بَقَــاءهُ

وَلَو انْ يَطُولُ مَداهُ، لِلأَبَدِ الأَبِــيــدْ

العقلُ لِلإنْسَانِ مَهْدُ النّــورِ، كَــم

يَزرِي عَلاَنِيَــةً بِأَعــلاقِ المُـهُـودْ

ما آدَهُ بحــرٌ لِــيَــعْــمُــرَه، وَلاَ

في سَاحقٍ مُستَوْحِشٍ أدَّتْــهُ بِــيدْ

بُشْرَى بِفَوزِ مَــنِ ارتَضَــاهُ قَائِداً

وَلَهُ، بِحُكْمِ مَقامــهِ، أبداً مَقُــودْ

أَمِنَ التَّزَنْدُقِ أَن نَرى رَأْيــاً. وَكَــم

هُوَ بِالثَّنَــا أَوْلَى لِنَبْنِيَــهُ وَطِيـدْ؟

وَبِــه بَلَغْنَا بَــعْـدَ جَهدٍ لِلعَنَــا

مثْلِ جَهِيـدٍ، بَل وَأَكْثَرَ مِن جَهِيــدْ

وبِهِ اعْتَصَمنَــا، لاَئِذيــنَ بِحَبْلــهِ

مَا إن لنا عَنِ الاعْتصامِ بِهِ مَحِيـدْ

العقلُ أَمْـلاهُ، وَدِيــنُ مُحمــدٍ

قد أملَيَاهُ بِغَيرِ لَبْسٍ أَو جُـحُــودْ

هُــو مَــارَوَتْـه، ولاَ نُكَتّـِمُ سِــرَّهُ،

عَنَّا، هُنَاكَ بِقَلبِ قُرطُبَةٍ، وُقُــودْ

وَلَو انْ نُسامَ بِمَا أَذَعْـنـا فِيهِـمُ

مِن يومَ أيْقظْنـاهُمُ، قَطْعَ الوَريـدْ

****

أوَ مجْرمٌ مَن فَلسَفَ الأَشْيَـا بِمَـا

هُو، دونَما شَكٍّ، يُفيدُ وَيَستَفيـدْ؟

وَإلَى الحَقائِقِ عَبْرَهَا هُوَ مَا ائْتلَـى

يَجْرِي صَبَاحَ مَساءَ جِدّاً كَي يَشِيدْ؟

أَوَ مُجـرمٌ مَنْ في الوُهـودِ سَعَتْ بِه

عَزَمَاتُه يوماً لِيَرتَـقِـيَ النُّجـودْ؟[4]

وَيَرَى الأَمَـامَ بعيـنِ ذي تَجْرٍ هَفَا

للكَسْبِ في نَهَمٍ نشيـطٍ، لاَ كَسِيـدْ؟

ويُحَكِّـمَ القُـرآن، والمأثُـورَ عَـن

طَهَ، وَعن فَحْـوى شَريعَتِـهِ يَـذودْ؟

لاَ بِالضَّعِيـفِ، وَمَـا رَواهُ العَابِثـ

ـونَ مِن الأراجِيفِ، الشِّرارُ، مِنَ اليَهودْ

****

مَا الفَيلسوفُ سِوَى المُحَـرِّبِ وَالمُقَيِّـ

ـيدِ كُلِّ فَوضَـى كَانَ بَاعِثَها شُـرودْ

---

4 - الوهود (المنخفض من الأرض) ويسعى بمجهوداته ليرتقى إلى النجود (المرتفع من الأرض)

حَسْبـــي لِفَلسَفــةِ الشَّريعَةِ أنـنّـــي

أنَا[5] فَارِسٌ مَـا بينَ أَقْطَـــابِ الجُنُــــودْ

لا! بل أَنَا ، وَلِبَارِئِـــــي سُبْحَانَـــهُ،

عَبْــدٌ حَقِيرٌ بَين مَــــن نَبْتُـــو عَبِيـدْ!

قَاضٍ، طَبِيبٌ، فيلســوفٌ، شَاعِــرٌ

مَا مثلُـــه إن يُنْشدْنَ حُلوُ النَّشِيـــــدْ

مُفــــتٍ ومجتهـدٌ، زَكـــَى في ذا وذَا

لا، لا اجتهادَ بِغَيْرِ موصولِ الجُهُـــــودْ

وأَنَا الفَقِيهُ، أَنَا المُعلّـــمُ، كَم جَثَــتْ

لِي كم عُقـولٍ صُنتهُـــا كَادَتْ تَبيــــدْ

وَمُؤَلِّفٌ، مَا خِلــتُ جَفْنِيَ عَارِفـــاً

مَا إن طَوَانـــي الليلُ، معنىً للرُّقُـــودْ

وَمُنَجّمٌ أَهوَى السمـــاءَ، وكيـــفَ لاَ؟

إن عِفْتُ أرضاً كَم تُلِـحُّ عَلى القُعُـــودْ

أَسمعتَ مِن أعلَى الأعَالِـي من بَعيــدْ

صَوتي أنَا ؟ إنِّي ابـــنُ رُشدٍ الحَفِيــــدْ

---

5 - *أنا: في النطق نخفي الألف حتى لا ينكسر الوزن، ولكن في الكتابة نبقيها.*


وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

بحر العلوم

الأستاذ أحمد السوسي التناني

قُلْ لِلمُغَازِلِ بِالقَوَافِي نَسْمَةً ... تَسْرِي إِلَيْهِ مِنَ الرِّيَاضِ لَطِيفَهْ

ما أعذب النسمات عند هبوبها ... تذرو فساتينا نسجن خفيفه

أنسيمة تسري كأنعم راحة ... فتميط عن خد النخيل حفيفه

من أين جئت؟ وما أتى بك أفصحي ... ردت: أنا بالأكرمين شغوفه

عبر المجاز أتيت من غرناطة ... بقرنفلي ووروديَ المقطوفه

وبِحَر أشواق أتوق إلى الذي ... بمهارة يأسو الفؤاد نزيفه

من غاص في التاريخ يسبر غورهُ ... شهما وعاش شتاءه ومصيفه

وأماط عنه ستائرا وضبابهُ ... فأتى يقبل رأسه وكفوفه

وبدا ابن زيدونٍ يصوغ روائعا ... وقريضه كجواهر مصفوفه

وابن الخطيب محدثا أو قارضا ... والمقري قرى التراث ضيوفه

كم جال في الحمراء يقرأ زخرفا ... وبمسجد يبكي بقرطبة المنيفه

ولكم أتى أغمات يندب حظ من ... بدموعه عجنت يداه رغيفه

من بعد ملك في الجزيرة موثرا ... رعي البعير ولا هنالك جيفه

وأميرة تخطو الثرى خطو الأسى ... والشوك نعل والقفار مخيفه

ما ضن في مشواره بيراعه ... ومؤلفات قد ملأن رفوفه

من كان في كل المحافل مصعقا … وإمام طلاب سطرن صفوفه
قل لي بربك! هل عرفت متيمي … فأجبت: إيه، ونبله وشفوفه
قد نلت من أفضاله وعلومه … ما لست أنسى، ما حييت، حروفه
من لم ينل أفضاله وعلومه … بأياد جودٍ لا تكل عطوفه
في العلم طود بالتواضع شامخ … بحرُ العلوم محمد بن شريفه
علم هنا، هرم بمصرَ بمجمع … كلتا يديه ندية وعفيفه
شيم التواضع كمه فيه سجية … وفتوحه بين الورى مكشوفه
يا سعد أندلس به وهيامه … برجالها ونساءها المعروفه
لهمُ جميعا قد نظمت تحيتي … مبحوحة، يا ليتها معزوفه
فلتقبلوا من جاء يركض من سلا … لرحابكم وغدا النخيل مضيفه
طاب المقام له وطاب له الهوى … وأزان بالزهر الجميل خريفه
لولاكمُ ما قام ينشد شاعرا … يُصلي القريضَ قصوره وعزوفه
شكرا لشاون الحمائم أهلها … عرفوا بكل مزية وطريفه
لله درهمُ، بجد زخرفوا … من مجد شاونهمُ سطور صحيفه
والحمد لله الكريم نواله … حمدا به صحفي تحول نظيفه
وصلاته وسلامه على أحمد … حتما لدي فريضة مألوفه
إن الصلاة على الشفيع شفاعة … لقصيدة تشكو الهزال ضعيفه

شفشاون الفيحاء

محمد نجيد

يا مرحبـا بي في لقائـك يا جمـيلة	أولـست رمـزا للمفـاتن والبطـولهْ؟
ربيـع أزهـار يـدوم منمـنما	مـا دمـت أنت عـلى المدى إكلـيلهْ
مـن ذا بـأحلام الطفـولة قـد وشى	إلاكِ، أنـت، ويال أحـلامِ الطفـولهْ
جبلٌ عـلى جبلٍ أطـلَّ مـن الـسما	منـك الجمـال و مـا تبـاهى مـن رجـولهْ
فردوسـَـنا في الأرضِ سحـراً باهـراً	للعـينِ يبـدو مـستثير أي سـهولهْ
و طبيعـةً هيهـاتَ يوجـد مثلهـا	و نـسائماً مهـما طغـتْ ريحٌ علـيلهْ
أنـتِ الّـتي تختـالُ أنْـدَلُسٌ بهـا	كمدينـةٍ في مثـلِ حُلّتهـا أصـيلهْ
لازلـتِ عُنـوانَ الجمـالِ مُحصحِـصاً	و لِعِـشْقِهِ مـنْ كلِّ ذي عِـشْقٍ وسـيلهْ

لَا غَالِبَ إِلَّا ٱللَّٰهُ

شهادة الأستاذ محمد جبرون

رئيس الجمعية المغربية للثقافة الأندلسية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى،

وبعد؛

السادة العلماء والباحثين، أيها الحضور الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يسرنا في الجمعية المغربية للثقافة الأندلسية أن نشارك في هذا الحفل التكريمي البهيج، الذي يحتفي بقامة عظيمة من قامات العلم والثقافة المغربية في تجلّيها المعاصر، والذي لا يختلف حول مكانته، وعطائه السخي للعلم والأدب المغربيين من سبقوه، ومن جايلوه، ومن تتلمذوا على يده، إنه عميد الدراسات الأندلسية الأدبية والتاريخية الدكتور محمد بن شريفة.

إننا في الجمعية المغربية للثقافة الأندلسية، ومن جهة انتسابنا لمدينة حافظة لآثار الأندلس والأندلسيين إلى اليوم، يسعدنا أن نشير إلى الفيضِ الخَيِّر لجهود الدكتور بن شريفة على هذه المدينة والثقافة الأندلسية عموما، والتنويه بالخدمات الجليلة التي أسداها إلى «الجيل الأندلسي الجديد» بشفشاون، والنواحي الأندلسية المختلفة من ربوع مغربنا الحبيب.

لقد ساهم الدكتور محمد بن شريفة بقسط عظيم في اليقظة الثقافية الأندلسية المعاصرة، المتمثلة من جهة في مغربة الدرس الأندلسي بالجامعة المغربية، ومن جهة ثانية في

التأسيس لوعي حديث بالهوية الثقافية الأندلسية، حيث كان من الأوائل الذين اعتنوا بالبحث في التراث الأندلسي، أدبا، ورجالا، ومن منظور مغربي، مستقل ومتميز عن الرؤية المشرقية، وتحديدا المصرية، فقد اعتبر بحق، أن المغاربة هم أقدر من غيرهم على تذوق الأثر الأندلسي، وإبراز كنهه. وكانت البداية بأبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي: حياته وآثاره، ثم أتبع هذا العمل بأمثال العوام في الشعر الأندلسي لأبي يحيى عبد الله بن أحمد الزجالي القرطبي؛ (أصل هذا الكتاب أطروحة نال بها دكتوراه الدولة من جامعة القاهرة).

وقد ساهمت هذه الجهود البحثية التي قام بها المحتفى به بكفاءة عالية، في إغراء الكثيرين واستمالتهم إلى الدرس الأندلسي، وهو ما أدى إلى ظهور مدرسة علمية أندلسية مغربية، تجلت معالمها في توجه عدد من الجامعات والأعلام المغاربة إلى درس وتدريس الأدب الأندلسي منذ سبعينيات القرن الماضي.

ومن ناحية أخرى، لم يقتصر أثر وصدى هذه الصحوة الأندلسية العلمية التي كان رائدها الدكتور بن شريفة داخل أسوار الجامعة وقاعات الدرس، والحلقات العلمية الضيقة، بل تجاوزها إلى تمثلات ثقافية عامة، ذات بعد أنتربولوجي، تجسد أول الأمر في استعادة كثير من أبناء الشمال، وأبناء منازل الأندلسيين عامة، ذكرى المأساة، وأدركوا أعلاقهم وأسفارهم الأندلسية، التي ما زالوا يعيشون بها ومعها إلى اليوم.

ومن ثم فإن النسيج الجمعوي الذي يشتغل بالثقافة الأندلسية اليوم، ويسعى إلى تجويد حضورها بين روافد الثقافة الوطنية مدين لكم بالكثير، ولا ينسى لكم هذا الفضل، فقد كانت أبحاثكم ودروسكم منارة يهتدى بها في مشروع عصرنة الثقافة الأندلسية، ومغربتها.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه المناسبة، أن دعوى الثقافة الأندلسية من منظور وطني، ليست نزعة طائفية منغلقة، أو نظرة استعلائية للآخر، باعتبار "التفوق الثقافي"

الأندلسي في بعض المراحل، بل هي شيء آخر مختلف تماما عن الفهوم المنحرفة للمسألة، هي اشتغال على الخصوصية، وتعرية ثقافية تتوخى إظهار الآثار الباقية للأندلسي في ثقافتنا الوطنية، ولا شك أن مثل هذا العمل صنيع حسن، يصب في إغناء الثقافة الوطنية، وتعزيز وحدتها، القائمة على الاعتراف بالتعدد، واستثماره...

وتزداد أهمية هذا العمل، وتزداد الحاجة إليه، إذا أدركنا أن الثقافة الأندلسية اليوم، لم تعد مصدر غنى معنوي أو ثقافي، بل هي – إلى جانب ذلك – أمست مصدر غنى مادي، فالعَرض الثقافي الأندلسي، المتمثل إجمالا في نمط العيش الذي لا زالت تحفظه عدد من الحواضر، وفي طليعتها مدينة شفشاون، والمتمثل تفصيلا في الموسيقى، واللباس، واللغة، والمطبخ، وبعض الحرف، والعمران، والعادات... إن هذا العرض يلقى رواجا كبيرا محليا ودوليا، ويغري الكثيرين بزيارة "المتاحف الأندلسية المفتوحة" (شفشاون)، والتمتع بأصالتها، وحلو مذاقها الروحي.

إن الثقافة الأندلسية في شفشاون وغيرها، والتي ساهم المحتفى به في تجديد الوعي بها، إحدى جوانب الثروة غير المادية التي يجب حمايتها، واستثمارها، لجلب الرفاه المادي والثقافي لشفشاون والمغرب إجمالا، ولا تفوتنا الإشارة في هذا الباب إلى التهديدات التي تواجهها هذه الثروة، وفي مقدمتها التدخلات العشوائية لبعض الجهات الخاصة والعمومية، وضعف التربية على الثقافة الأندلسية؛ وضعف في سياسة التنمية الثقافية المندمجة.

إن تكريم العلامة الدكتور محمد بن شريفة بمدينة شفشاون، هو في جوهره تكريم للثقافة الأندلسية، واعتراف ضمني بما تمثله هذه المدينة على صعيد الذاكرة الأندلسية، وربما لن نبالغ إذا قلنا أنها عاصمة الموروث الثقافي الأنتروبولوجي الأندلسي، فشكرا لمنظمة المجتمع المدني في شخص رئيسها الدكتور مصطفى الزباخ، وشكرا لجمعية ذاكرة الأندلسيين في شخص رئيسها الدكتور محمد نجيب لوباريس.

وفي ختام هذه الكلمة المقتضبة، نسأل الله العلي القدير أن يجازي أستاذنا الفاضل الدكتور محمد بن شريفة خير الجزاء، على ما أسداه من معروف للعلم والثقافة الأندلسيين، وأن يرزقه موفور الصحة والعافية، وأن يطيل عمره، حتى يتم رسالته في هذه الحياة كاملة غير منقوصة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

البحوث العلمية


واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

الإحياء في الأندلس

الدكتورة عصمت دنديش

لا يمكن أن نتفهم الصراعات الفكرية والمذهبية في الأندلس بعيداً عن سياقها التاريخي ومحيطها الاجتماعي، فإحراق كتب الغزالي أو تكفيره الذي أثيرت حوله الضجة، يبدو أنه كان بسبب حرص فقهاء المالكية على الالتزام بالوحدة المذهبية، التي كانت لها آثارها الحميدة والسلبية في نفس الوقت على المجتمع الأندلسي. وحادث إحراق كتب الغزالي أو غيره لم يكن الحادث الأول والأخير. بخلاف ما كان يحدث في المشرق من اختلاف المذاهب والنحل والأفكار، وكثرة المناظرات والجدل في المدارس المختلفة، واستيعاب الحجج والاختلاف في الرأي، شيء اعتادوا عليه، لذلك لم يثر كتاب "الإحياء" في المشرق هذه الزوبعة، ولم يلتفت إليه إلا بعد فترة طويلة من إحراقه، وهذا لم يوجد في الأندلس المالكية المتزمتة.

فبعد تحول الأندلس من المذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك، الذي اعتبروه ديناً لهم، وتمسكوا به، واعتبروا مخالفيهم كفارا زنادقة، وعندما ارتحل طلبة العلم إلى المشرق واختلطوا بأهل العلم، وأخذوا عنهم مذاهب الأئمة المشهورين، وكتب الحديث، وشاهدوا النهضة العلمية وكثرة التصانيف، اتسعت مداركهم، ونمت مواهبهم وأفكارهم، فلما رجعوا إلى الأندلس وحاولوا نشر ما تعلموه وقف في وجههم فقهاء الأندلس، ورأوا أن ما أتى به هؤلاء من علم المذاهب وعلوم الحديث هو مخالف لمذهبهم أو بعضه، "وكان المخالف عندهم كافراً زنديقاً"، وقرروا ذلك عند العوام وعند السلطان، وقاموا في "طلب دمائهم" فصار التقليدُ دينَهم والاقتداءُ به يقينَهم".

يقول القاضي أبو بكر بن العربي : «فكلما جاء أحد من المشرق بعلم، دفعوا في صدره، وحقروا أمره، إلى أن يستتر عندهم بالمالكية، ويجعل ما عنده من علوم على رسم التبعية»[1].

وقد امتُحِن بقي بن مخلد، وكاد يقضي عليه، لولا أن الأمير عندما طالع وقرأ ما عنده أعجبه. وكان من جملة ما أتى به من علم الحديث، سند ابن أبي شيبة، فأمر الأمير بمطالعة ما عنده والأخذ عنه، فانصرف الناس إلى ابن مخلد يأخذون عنه الحديث وما نقل عن الأئمة، وانتشر علمه، وعاد ما كان منكراً عندهم مألوفاً، وما اعتقدوه كفراً وزندقة إيماناً ودينا حقاً.

لكن الصدمة الكبرى كانت بعودة ابن مسرة الجبلي (ت 319 هـ) والمنذر بن سعيد البلوطي (ت355هـ) الذي أتى ببدعة القدرية في الاعتقاد، ونحلة الداودية في الأعمال. أما ابن مسرة فقد أتى بأفكار المعتزلة والصوفية والفلاسفة وكان تأثيره كبيراً على الحياة الروحية والفكرية حتى بعد وفاته بمدة طويلة[2].

وقد انتشر دعاة ابن مسرة بعد وفاته 319 هـ، وبدأوا يجاهرون بآراء المعتزلة والنحل الباطنية، مما جعل فقهاء المالكية يحذرون الناس ويحرضون الخليفة عبد الرحمن الناصر على محاربتهم، ومنعهم من المساجد[3].

---

1 - ابن العربي، العواصم ج 2، ص490

2 - اتفقت المصادر التي ترجمت لابن مسرة على انه كان كثير العلم بالأخبار، فيلسوفاً علمياً وطبيباً ومنجماً وفلكياً، وله بعض الاجتهادات في اللغة، كما شارك المعتزلة في القول بالاستطاعة وإنفاذ الوعد والوعيد، وتحريف التأويل في القرآن، مع الأخذ بأساليب الصوفية في النسك والعبادة، فاغتر الناس بظاهره، إذ كانت له قدرة كبيرة على التأثير في النفوس لعذوبة كلامه، ومتانة حججه، واطلاعه الواسع على العلوم، كما كان يحفظ مسائل المدونة، حتى كان يسردها سرداً، وصنع لها مختصراً جاء من أفضل مختصرات المدونة وأتمها. انظر ترجمة ابن مسرة في :الحميدي، جندة المقتبس من ص 58، النبهاني : تاريخ قضاة الأندلس، الضبي: بغية الملتمس ص 88. والدراسة القيمة للمرحوم الدكتور محمود علي مكي : التشيع في الأندلس، مجلة المعهد المصري بمدريد 1934.

3 - أصدر الخليفة عبد الرحمن الناصر منشوراً سنة 340 هـ وآخر 346 هـ قرئ على الناس في المساجد ينكر فيه ما يقوم به أصحاب ابن مسرة، ويحذر أتباعه المبتدعين إذا فارقوا الجماعة وخالفوا أهل السنة.

وبرغم تشديد السلطة ومتابعة الفقهاء لأنصار ابن مسرة، إلا أنها استمرت وتطورت بعد أن تزعمها إسماعيل بن عبد الله الرعيني[4]، الذي أدخل عليه كثيراً من الآراء الباطنية، وانتشر دعاته يستميلون الناس إلى مذهبهم، وينادون بأفكار كلها خليط من الاعتزال والفلسفة والباطنية. وقدر لهذه المدرسة أن تستمر في قرطبة على الخصوص إلى عهد الموحدين.

وبعد مدة أنس فقهاء الأندلس إلى علم الأصول الذي أتى به الأصيلي أبو محمد عبد الله بن إبراهيم (ت 392هـ)، وأبي الوليد الباجي (ت 474هـ) بعد أن اطلعوا عليه، وإن استمر استنكار الفروع بدأ العلم الذي ازدهر على يد القاضي أبي بكر بن العربي.

أثر القاضي أبو بكر بن العربي في نشر كتب الغزالي:

بعودة أبي بكر بن العربي إلى وطنه إشبيلية سنة 495هـ بعد رحلته الطويلة إلى المشرق، والتي استغرقت ما يقرب أحد عشر عاماً، حاملا معه أفكاراً جديدة وعلما غزيراً، ومصنفات عديدة في فروع العلم المختلفة التي لم يكن لأهل الأندلس بها احتكاك، فأحدث رغبة عند الناس للاطلاع على ما أتى به.

لقد عاد ابن العربي بعد أن تتلمذ على رؤوس الأشعرية، وسمع المعتزلة، والحنابلة، والشافعية والحنفية، وأخذ عنهم علوم القرآن والحديث، وأصول الدين وأصول الفقه وفروعه، وتأثر بالمناهج العقلية والشرعية لهؤلاء العلماء من المتكلمين والفقهاء، ولم يقصر في الاطلاع على

---

4 - أحدث الرعيني في مذهب ابن مسرة أقوالا منها، أن الأجساد لا تبعث أبداً، وإنما تبعث الأرواح، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب، ويصير إلى الجنة وإما إلى النار، وإنه لا بعث إلا على هذا النحو، وكان لا ينسب العقل إلى الله وينزهه عن ذلك، ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم، وينسب قوله إلى مسرة، ويستشهد على ذلك بأقوال من كتبه، وكان يقول بنكاح المتعة، وهذا المبدأ الذي تمسك به الشيعة الاثنى عشرية في فقههم، وكان الرعيني إماماً واجبة طاعته، يؤدون إليه زكاة أموالهم، ويذهب إلى القول بأن الحرام قد عم الأرض، وإنه لا فرق بين ما يكتسبه من الرفاق، وأن الذي يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه، وكان يرى الدار دار الكفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط.

ترجمة الرعيني ابن سعيد، المغرب، ج1 رقم 58 ص 121، الحميدي : م.س.ص 53

د.محمود مكي: م.س.. ص180

الأصيلي لا بن فرحون: الذيباج المذهب، ج1 ص 433.

آراء الفلاسفة وخاصة ما كتبه الغزالي، ولم يقتصر على الاطلاع، بل ناقش هذه المذاهب ونقدها، وتعرف عن قرب على مختلف التيارات المذهبية، وخبر آراء الباطنية الإسماعيلية، ودرس آراء الصوفية وأصحاب الإشارات والتقى بهم[5].

يقول ابن فرحون «وقدم بلده إشبيلية بعلم كثير لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها، والجمع لها، متقدما في المعارف كلها، متكلما في أنواعها- نافذا في جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد وثبات الود»[6].

جلس أبو بكر بن العربي يدرس في إشبيلية بعد استقراره مباشرة، واتسعت حلقاته العلمية، وتقاطر عليه طلبة العلم من أنحاء الأندلس والمغرب، وكانت له طريقة عجيبة في تدريسه لفتت إليه أنظار الناس في جمعه بين طريقة النقل والعقل.

فهو أشعري الاتجاه، غزالي في منهجه النقدي، وكان يعلم عناية أهل الأندلس بموطأ مالك وقصر عنايتهم في معرفة فقهه، والاستدلال لمسائله، والجمع بين ضبط أحاديثه، ودقة استخراج الفقه منها بإعمال الأدلة، والتنظير بينها، فانتصب يشرح لهم الموطأ شرحاً واسعاً على منهج الاستدلال والفقه في المعاني، واهتم بتدريس الأصول فجذب إليه الفحول من ناشئة الفقهاء والمتأدبين إلى دروسه، فكان منهم المحدث والفقيه والفيلسوف والمؤرخ والمتصوف واللغوي والشاعر والأديب والطبيب وغيرهم[7].

كان لابن العربي الشجاعة في إبداء رأيه، ولو كان مخالفاً لآراء أئمة الإسلام الكبار كالإمام مالك، والشافعي، والأشعري والغزالي، فاتسعت حلقاته وذاع صيته، وحبب الناس

---

5 - انظر ترجمة وافرة قام بها الدكتور عمار الطالبي في تحقيق كتاب ابن العربي "العواصم من القواصم" الذي نشره بعنوان "آراء كلامية".

6 - ابن فرحون، الديباج المذهب ص182

7 - انظر قائمة تلاميذ العربي في البحث القيم للدكتور محمد السليماني في تحقيق كتاب "قانون التأويل لابن العربي"

في الغزالي وطريقته النقدية التي لم يألفها أهل الأندلس، وملأ كتبه النفيسة بذكر الغزالي والتعلق بمتين محبته، وجليل إعظامه، والتلذذ بإعادة محاوراته، وتجديد مطارحاته، بما يشهد به من حرية البحث وكرامة المعرفة، مما يدفع به إلى مناقشة أستاذه الغزالي في كثير من أقواله وآرائه، ويعترف له الأستاذ بهذا التفوق وسرعة الاستيعاب ولا يستحيي الغزالي من اعترافه بصحة آراء تلميذه وتمكنه من الحديث، بينما الغزالي يقول له :«بضاعتي في الحديث مزجاة في كتابه "إحياء علوم الدين"».

كان ابن العربي ينقد كتب الغزالي نقد العالم المنصف، وليس المتعالم المكابر، فامتدحه في العديد من كتبه وتأثر بها، وأعجب بكتابه "تهافت الفلاسفة"، وبين أن الغزالي نجح في الرد على الفلاسفة، وفاق جميع من تقدمه من الذين ناقشوا الفلاسفة، فقد نفذ إلى آرائهم قبل أن ينقدها، ثم توجه إليها بالرد وبيان تهافتهم ورد عليهم بلغتهم، وكافحهم بسلاحهم، والنقض عليهم بأدلتهم، "فأفسد قولهم من قولهم، وذبحهم بمداهم"[8].

شغل ابن العربي كثيراً طلبة العلم والفقهاء بكثير من القضايا الفكرية التي يعول عليها في فهم القرآن الكريم وسنة رسول الله (ص)، وقرعت أسماعهم أشياء لم يألفوها ولا عرفوها، وكلام خرج عن معتادهم من مسائل الصوفية، فتلهف الصوفية على كتب الغزالي يقرأونها، خصوصاً كتابه "الإحياء" الذي جعلوه منهجاً ودستوراً، وتناولوه بالدرس والتمحيص، وبذلك انتشر "الإحياء" وتداوله العلماء والعامة خصوصاً المتصوفة الذين وجدوا فيه مبتغاهم، وحاول البعض إسقاط ما ذكره الغزالي من صفات على فقهاء الزمان الذين ملكوا السلطة والمال، خاصة قاضي الجماعة بقرطبة الذي كان يترصده الشاعر أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني بشعره الذي هجاه فيه قائلا :

---

8 - ابن العربي : العواصم من القواصم، تحقيق دكتور الطالبي تحت عنوان "آراء كلامية" لابن العربي ج 2 ص 106.

أهل الرياء لبستم ناموسكم كالذئب أولج في الظلام العاتم

فملكتم الدنيا بمذهب مـالك وقسمتم الأموال بابن القاسـم

وبأشهب شهب البغال ركبتم وأصبغ صبغت لكم في العالـم[9]

كما لم يسلم الفقهاء من لسان العامة وأمثالهم متهمين إياهم باستغلال النفوذ والفساد[10].

كان قاضي الجماعة أبو عبد الله بن حمدين يتمتع بمكانة كبيرة عند أمير المسلمين علي بن يوسف، ومن قبله أبوه يوسف بن تاشفين، خصوصاً بعد رفضه الاشتراك في مؤامرة الأمير محمد بن الحاج داوود اللمتوني[11]، الوالي على قرطبة ومن معه من أعيانها عندما رفض البيعة لأمير المسلمين علي بن يوسف (500 هـ) بعد وفاة والده. يقول ابن بسام : «*ومالأه الملأ (أي الأمير ابن الحاج) من أهل قرطبة ومشيختها وفقهائها، ومشجعه على هذا العمل وصفه له وزيره أبو بكر محمد بن عبد العزيز المعروف بابن المرضي، وأبو عبد الله بن أبي الخصال، ورفض قاضي الجماعة أبو عبد الله بن حمدين نقض البيعة، واعتبرها فتنة، تلك الفتنة التي ألقحوا حائلها، وما لحوا مخايلها، وطمعوا أن يغتالوا ملكا معصوما، وأبرموا من كيدهم ما غدا بيد القدر مفصوما*»[12].

---

9 - ابن إدريس التجيبي (أبو بحر صفوان) : زاد المسافر ص 71، المراكشي : المعجب ص. 171

10 - انظر كتابنا : الأندلس في نهاية المرابطين ص.ص 274، 275.

11 - هو الأمير المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني سمع بقرطبة من أبي محمد بن عتاب، وأبي بحر الأسدي ومرسية من أبي علي الصدفي ومع أنه من رؤساء لمتونة وأمرائها فقد برع في معرفة الأخبار والسنن والآثار، وصحب العلماء للسماع، وناقش في الدواوين والأصول العتيقة وجمع بذلك ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه، وهو فخر صنهاجة.

ابن الأبار :التكملة، 163 ط. مدريد، المعجم رقم 174

12 - ابن بسام : الذخيرة ج 3، قسم 2، ص 784

أزهار الرياض ح 3، ص 96، ط 2 وزارة الأوقاف

وانظر كتابنا : دراسات أندلسية، أسرة بني حمدين ودورها السياسي في الأندلس.

لم يعجب الأمير ابن الحاج والمؤيدون له موقف ابن حمدين فنكلوا به وهددوه بالموت إن لم يغير موقفه، ولم يأبه بهم واستطاع الإفلات من قبضتهم، وإرسال رسالة إلى الأمير علي بن يوسف وإبلاغه بالمؤامرة، ونجح في تأليب الناس على الأمير ابن الحاج ومن معه. وقد أسرع الأمير علي بن يوسف بالجواز إلى الأندلس وكان هذا أول جواز له بعد توليه الحكم سنة 500هـ. فنزل بالجزيرة الخضراء، واجتمع بالفقهاء والقضاة وأمراء النواحي، وأمر بعزل الأمير ابن الحاج والقبض عليه، والتنكيل بمن كان معه. ثم أجرى تغييرات في أمراء النواحي، وعين على قرطبة الأمير أبا عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني. ثم رجع إلى مراكش ولم يمكث كثيراً في الأندلس.[13]

ارتفعت مكانة ومنزلة قاضي الجماعة ابن حمدين عند الأمير علي بن يوسف، وأطلق يده في اتخاذ القرارات، وأعطاه صلاحية كاملة في محاسبة وسجن من يستحق من أمراء وعمال المرابطين، ومصادرة أموالهم إذا لزم الأمر، كما أعطاه الحرية في تقدير معاشه كقاضي للجماعة. ويطلب منه الصبر على ولاية القضاء فيقول: «وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أولا وكلهم آخراً، مذ صرت قاضياً سامعون منك غير معترضين في حقه عليك، وإن شكت الرعية إليك بعامل، وصح عندك ظلمه لها، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه، وإن استوجب الغرم في ما استهلك فأغرمه، واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه»[14].

---

13 - ابن عذارى: البيان المقرب ص4، ص48.

14 - عندما علم ابن البني أن قاضي الجماعة أراد أن يعتفي من القضاء بسبب التشغيب عليه اتهمه ابن البني باستحالة هذه الرغبة يقول:

*أدجّال هذا أوان الخروج *** ويا شمس لوحي من المغرب*

*يريد ابن حمدين أن يعتفي *** وجدواه أنأى من الكوكب*

المراكشي: المعجب ص236.

تدل هذه الرسالة على أن امير المسلمين علي بن يوسف قد أعطى لقاضي الجماعة ابن عبد الله بن حمدين صلاحيات لا حدود لها. وبذلك أصبح وكأنه الحاكم الفعلي لقرطبة ونواحيها ومن يسكنها. وغير خاف ما كان لسلطة الفقهاء ودورهم في الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك الوقت، وفي الأندلس على العموم، فكان في مقدورهم حث العامة على الثورة أو تهدئة الأمور، لذلك كان يحرص أول الأمر على تحاشي الصدام معهم، إذ كان في مقدورهم إظهار الأمير بالصلاح والتقوى والحرص على مصلحة الرعية أو عكس ذلك، فيؤلبون العامة على الأمير إذا تعارضت المصالح[15].

وقد عرف عن أمراء المسلمين من المرابطين الخضوع لرأي الفقهاء، خصوصاً في أخطر الأمور. يقول الصيرفي عن أمير المسلمين : «يواصل الفقهاء، ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم، ويقضي على نفسه وغيره بفتواهم»[16].

فهذه الصلاحيات الواسعة التي أعطيت لقاضي الجماعة ابن حمدين، أشعرته بالمسؤولية تجاه سلامة الدولة، واستقرار أخطر، ولاشك أن انتشار كتب الغزالي وسرعة تداولها بين الخاصة والعامة، خصوصاً المتصوفة التي كانت متأثرة بالأفكار الباطنية لابن مسرة والرعيني، جعلته يتربص بكل كبيرة وصغيرة في قرطبة ونواحيها، خصوصاً وقد انتشر التطاول والتهكم على الفقهاء الذين تزايدت ثرواتهم، وزاد جهلهم، فسلخهم بعض الشعراء والزجالين، ولم يسلموا من ألسنة العامة وأمثالهم، وهاجم بعض

---

15 - كان للفقهاء موقف من الأمير يوسف بن تاشفين في بداية حكمه، إذ طالبوه بتقليد من الخلافة العباسية حتى يعترفوا بشرعية حكمه، ما اضطره في إرسال رسله إلى بغداد للحصول على هذا التقليد، فأرسل أبا بكر بن عتيق من أهل سبتة الذي قتله أمير الجيوش الفاطمي بدر الجمالي(484 هـ - 1091 م) لأنه وجد معه كتب الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي إلى يوسف بن تاشفين، ثم أرسل أبو عبد الله بن العربي الذي حصل على تقليد الخليفة العباسي المستظهر كما حصل على فتوى من أبي حامد الغزالي وتوصية تقر يوسف بن تاشفين.

انظر الدراسة حول رسائل ابن العربي من مجلة المناهل عدد 9 السنة الرابعة – الرباط 1977

وانظر عن تسلط الفقهاء كتاب د. حسين مؤنس، شيوخ الأندلس، وتاريخ قضاة قرطبة للخشني، والمرتبة العليا للنباهي.

16 - الحلل الموشية ص.59

المحتسبين الانحلال الأخلاقي الذي ساد المجتمع، والفساد الإداري والديني الذي استشرى، يقول ابن العربي[17]، وقد فسد اليوم الأصناف كلهم، وأشدهم فساداً الأمراء والفقهاء، وهم الذين تصلح بهم الأحوال، وتنال بصلاحهم الآمال. ويقول :«لقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي، أعلى فوات دنياه، أم على ذهاب دينه، أم على إخوانه في القربات، أم على دروس العلم وطقوسه»[18]. كما يذكر المراكشي أن أحوال البلاد اختلت، وانتشر الفساد بعد تولي الأمير علي بن يوسف. يقول : «واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكد كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد، وانتهوا إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المؤمنين، وأحق بالأمر منه»[19].

لقد استمر تدريس وتداول كتب الغزالي خاصة كتابه الإحياء حوالي ثمان سنوات بعد 495 هـ، مع عودة القاضي أبي بكر بن العربي وبعض الراحلين من الأندلس معه أو بعده. كل هذه السنوات ساعدت على انتشار أفكار الغزالي بين المتصوفة على الخصوص، وكذلك رسائل إخوان الصفاء، وكتب الفلسفة. وساعدت الأوضاع الاجتماعية وغيرها على وجود تيار قوي يدافع عن هذه الأفكار، ويتعصب لما جاء في "الإحياء"، وصنف البعض ما يؤيد هذه الأفكار ويحبذها، ويبدو أن هذا الأمر قد أزعج قاضي الجماعة بقرطبة على الخصوص، فهو يقول باستهزاء عن الذي تعصب لكتاب "الإحياء" وكتب عنه ووصفه بأنه كان فقيهاً ترك الفقه إلى الوعظ[20]: *«إن بعض من كان ينتحل رسم الفقه ثم تبرأ منه شغفاً*

---

17 - ابن العربي : سراج المريدين ورقة 157

18 - ن.م ورقة 57.

19 - المراكشي .م.س. ص 261

20 - لم نستطع أن نستدل على هذا الفقيه الذي تخلى عن هذه الصفة وانخرط في التصوف وصار واعظا، فهل هو الصوفي الكبير الحسن بن غالب الذي وصفه ابن الزبير بشيخ الصوفية في وقته ؟ وقال عنه ابن عبد الملك المراكشي، «إن له في طريقة التصوف مصنفات لا نظير لها، منها كتاب، الاعتبار وكتاب "الأيام والحجب" وكتاب "اليقين"».

ابن الزبير الجملة رقم 201 من 99، عند الملك المراكشي : للذيل والتكملة سفر 5 قسم 1 رقم 415 من 209.

بالشرعة الغزالية، والنحلة الصوفية، أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم، فأين هو من شنع مناكيره، ومضاليل أساطيره المباينة للدين ؟ وزعم أن هذا من علم المعاملة، المفضي إلى علم المكاشفة، الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يفسر عن قناعة، ولا يفوز باطلاعه إلا من تمطى إلى تيج ضلالته التي رفع لهم أعلامها، وشرع أحكامها» [21].

لقد انزعج الفقهاء وقاضي الجماعة مما ذكره الغزالي في الإحياء عن الفقهاء الذين قال عنهم : «وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى وحماقة، واجتراء، وعجب بغير فضيلة ورياء، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وهم أكثر من عمّر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد وأرسان العوام، وهم خلفاء إبليس، وأعداء الحقائق، وأخذان لعوائد السوء»؛ وقد قسم الغزالي العلماء إلى ثلاثة أشكال : حُجة، وحَجّاج، ومَحْجُوج، فالحجة عالم بالله وبأمره وبآياته، مهتماً بالخشية لله سبحانه، والورع في الدين والزهد في الدنيا، والإيثار لله عز وجل.

والحجاج مدفوع إلى إقامة الحجة، وإطفاء نار البدعة، وقد أخرس المتكلمين، وأفحم المتخرجين، برهانه ساطع وبيانه قاطع، وحفظه ما ينازع، شواهده بينة، ونجومه نيرة، قد حمى صراط الله المستقيم.

أما المحجوج فهو عالم بالله وبأمره وبآياته، ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه، وحجبه عن الورع والزهد والرغبة والحرص، وبعده عن بركات علمه، محبة العلو والشرف، وخوف السقوط والفقر، فهو عبد لعبيد الدنيا، خادم لخدمها، مفتون بعد علمه، مغتر بعد معرفته، مخذول بعد نصرته، شأنه الاحتقار لنعم الله، والازدراء لأوليائه، والاستخلاف بالجهال من عباده، وفخره بلقاء أمير وصلة سلطانه وطاعة القاضي والوزير والحاجب له، قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه والاتباع له" [22].

---

21 - الذهبي : أسير أعلام النبلاء ج 19 ص 332.

22 - الغزالي : الإملاء في إشكالات الإحياء، ضمن الجزء الخامس من الإحياء.

فهل توهم ابن حمدين ومن معه من الفقهاء، وهيئ لهم أن الغزالي يعنيهم بهذه الأوصاف، خصوصاً بعد شيوع التندر بهم بين الناس، وجهرهم بفساد هذه الطبقة، وانصرافهم عن العلم ؟ ويظهر هذا من محاولة إقناع الأمير علي بن يوسف بخطورة هذا الكتاب.

أم أن الذي أزعج هؤلاء الفقهاء المنحى الفكري الذي أخذه الغزالي في اتجاهه الصوفي ؟ أم لأن "الإحياء" اشتمل على عدد كبير من الأحاديث الضعيفة والقصص ؟ والذي وجدوه خطراً على المستوى الفكري والتشريعي ؟[23]. وإن كان هذا يبدو أنه السبب الفعلي. فكتب المواعظ والرقائق بها الكثير من هذا النوع من الأحاديث، والتي يغض عنها الطرف للترغيب والترهيب.

أو أن الذي أتى به الغزالي، مما فهموه أنه تلميحات باطنية، او فلسفية، أو تأويلات بحيث يصبح من السهولة توظيف هذه الأفكار توظيفا باطنياً، وبالتالي توظيفاً سياسياً. وهذا ما استغله بالفعل فيما بعد المهدي بن تومرت والمريدون، خاصة وأن أتباع ابن مسرة كانت لهم مثل هذه الأفكار الباطنية الفلسفية، والتي لم يقض عليها. وهذه الأفكار كانت تشكل حاشية للدولة خوفاً من نفوذ الفاطميين في مصر والتي ينتشر دعاتها في كل مكان[24]. ويبدو أن الفقهاء والدولة وجدت أن مثل هؤلاء الصوفية أو المفكرين الذين

---

23 - د. عبد المجيد الصغير، البعد السياسي في نقد القاضي ابن العربي لتصوف الغزالي، مقال في سلسلة ندوات كلية الآداب بالرباط عدد 9 من 179.

24 - كانت العلاقة بين المرابطين والخلافة الفاطمية في مصر يشوبها الغموض، فلا نعرف عنها إلا اليسير، فهي لم تتخذ شكل العداء السافر، ولم يذكر أخبار عن مضايقة المغاربة الذين يقيمون في مصر للعلم أو الذين يتخذونها معبراً للأراضي المقدسة للحج وأخذ العلم. لكنه في عهد الأمير يوسف بن تاشفين، أمر أمير الجيوش بدر الجمالي بقتل القاضي أبو بكر عتيق بن عمران من أهل سبتة رسول ابن تاشفين للخليفة المقتدى العباس بسبب عثوره على رسالة تقليد لابن تاشفين على حكم الأندلس والمغرب وتذكر المصادر أن الأمير يوسف بن تاشفين استدعى الكاتب ابن القصيرة على إثر وصول خطاب عاجل من صاحب مصر، لا ندري فحواه، وجب الرد عليه بسرعة وكفاءة وذكاء، فقام ابن القصيرة بهذا العمل بكفاءة واقتدار. فكأنه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ورفع شأنه حتى أنساه زمانه، - ابن الخطيب : الإحاطة ص3 ترجمة ابن أسباط.

فهل كان هذا الخطاب الفاطمي يبلغ العاهل المغربي بوفاة الخليفة المستنصر 487 هـ وأن الخلافة آلت للابن الأصغر الذي تسمى بالمستعلي، ويطلب من صاحب المغرب والأندلس بالاعتراف بالخليفة وتأييد هذا الاختيار؟؟

يتجهون اتجاهاً باطنياً، إنما يكونون خطراً حقيقياً على الدولة. إذ كانوا يشكلون خطراً على الوحدة المذهبية، أي الالتزام بمذهب مالك، وربما يكونون أدوات بطريق غير مباشر للسياسة الفاطمية. مع أن كتب الغزالي لم تخل من نقد الباطنية التي اعتبرها أكبر خطر داخلي يوافق هدف الحركات الصليبية في تقويض جسم المجتمع الإسلامي وأركان الدولة.

كان عام 503 هـ، حاسما بالنسبة للمرابطين خارجياً وداخلياً، فعلى المستوى الخارجي استطاعت الخلافة العباسية أن توقع بالباطنية، وتقتل عدداً كبيراً منهم، وتقبض على الآخرين. وقد أمر الخليفة المستظهر بقتلهم دون قبول توبتهم، حسبما رآه إمام دار الهجرة مالك، وكتب "فإنهم أخبث الطوائف مقالة، وأسخفها حجة ودلالة. أليس شاعرهم الذي يقول :

حل برقادة المسيح   حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو البرايا   فكل خلق سواه ريح

فكانت أول مسألة حكم فيها بمذهب مالك، بمدينة السلام، بعد أحوال وأعوام[25].

أما على المستوى الداخلي فقد كانت الظروف مواتية للمرابطين، بعد انتصارهم على مملكة قشتالة في معركة أقليش سنة 501هـ، والتي خسر فيها المسيحيون عددا كبيرا من قادتهم وتوفي على إثرها ألفونسو السادس ملك قشتالة. وقد شبهت بالزلاقة، وقد تزوجت ابنة ألفونسو الوارثة لمملكة قشتالة من ألفونسو المحارب ملك أراجون وليون، وبذلك صار يحكم أقوى دولة بضم أملاكه إلى قشتالة سنة 507 هـ.. لكن هذا الزواج كان سببا في كثير من المشاكل التي شغلت المسيحيين عن مراقبة حركة المرابطين، فانتهز الأمير علي بن يوسف الخلاف الذي وقع بين الزوجين وقيام الحرب بينهما، وعبر إلى الأندلس، حيث وجدها فرصة سانحة أمام جيوش المرابطين.

---

25 - *ابن العربي : العواصم ص ص 77، 78 وانظر هامش رقم 5 ص 3 من البحث*

عبر الأمير علي بن يوسف إلى الأندلس في منتصف محرم سنة 503 هـ، برسم الجهاد ونصر الملة، وإعزاز الكلمة، فنزل بغرناطة بضعة أيام رتب فيها الجيوش، وعين بعض الأمراء، وعفا عن الأمير ابن الحاج وعينه واليا على بلنسية وشرق الأندلس، تمهيدا لفتح سرقسطة، ثم انتقل إلى قرطبة، ومكث بها ما يقرب من شهر استعدادا للحركة، تجاه طلبيرة وحصار طليطلة.

اجتمع بأمير المسلمين قاضي الجماعة ابن حمدين وعدد من فقهائها، وبينوا له أن كتاب الإحياء للغزالي يعنيهم ويهدد الحكم، "وكان عليهم أن يشرحوا ويبسطوا الأمر بغية الإفهام والتنبيه للأمير فقالوا: "*إن كان في الدنيا كفر وزندقة فهذا الذي في كتب الغزالي*"، وأجمعوا على ذلك، وحملوا الأمير على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة إلى الضلال بزعمهم، وعزموا عليه حتى أجابهم إلى ما سألوه منه[26].

يبدو أن أمير المسلمين علي بن يوسف لم يكن مقتنعاً برأي الفقهاء في البداية، نظرا لسلوكه الصوفي الذي عرف عنه[(27)]. لكنه، بعد إلحاح ابن حمدين وجماعته، وشرح المخاطر التي تنعكس على سلوك المجتمع، فقد اضطر لإصدار قرار بحرق كتب الغزالي. "وأحرقت كتب الغزالي وهم لا يعرفون ما كتب فيها"[28].

وخاطب الأمير أهل مملكته يأمرهم بحرقها، "ويعلمهم أن هذا الذي أدّى إليه نظر العلماء"، وبذلك رَمَى الأمير بمسؤولية الحرق على العلماء الذين أفتوا بذلك. فقرئت مخاطبته على المنابر، وشنع الأمر بذلك تشنيعاً عظيماً، وامتحن من

---

26 - ابن القطان: نظم الجمان ص ص 14، 15، الحلل الموشية ص 104، ابن عذارى بيان المغرب جـ 4 ص 59

27 -

28 - لقد وصف المراكشي الأمير علي بن يوسف بكثرة العبادة يقول: «عكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار، مشتهراً عنه ذلك و"يضيف" كان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيداً عن الظلم، كان يعد في الزهاد والمبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين» المراكشي: م س ص.ص 177، 171.

كان عنده من كتاب "وخاف كل إنسان على نفسه أن يرمى بـأنه قرأ منها كتاباً أو اقتناه".

وقد جمعت كل النسخ التي عثر عليها من الإحياء، ووضعت عند الباب الغربي من مسجد قرطبة الجامع، وأشبعت زيتاً كي يسهل إحراقها بحضور جماعة من أعيان قرطبة وعلمائها، يتقدمهم قاضي الجماعة ابن حمدين. وقد استمر الحرق في مختلف جهات الدولة ذلك العام[29] ويبدو أن التحذير من اقتناء هذه الكتب استمر إلى آخر دولة المرابطين[30]، رغم ما اشتهر عنهم من زهد وتصوف[31].

لقد اعتبر ابن حمدين المسؤول الأول عن حرق كتب الغزالي، فهو الذي أثار القضية وهو الذي تبنى فكرة الإحراق، وأقنع بها بقية فقهاء قرطبة، وهو الذي وضع أمير المسلمين علي بن يوسف أمام الأمر الواقع، وعرض عليه ما اتفق عليه العلماء بتكفير ما جاء

---

29 - *أخذت نسخ من أيدي أصحابها كان معول الغزالي عليها منها كتاب الأمير أبو عمر بن ميمون بن يسن الصنهاجي اللمتوني، وكتاب القاضي أبي بكر بن العربي الذي حمله إلى الجزيرة الخضراء وأمر بحله في الماء*

ابن القطان : م س ص ص 14، 15

30 - *أصدر الأمير تاشفين بن علي منشوراً بعد توليه الحكم إلى أهل فلنسية يحذرهم فيه من كتب الغزالي الذي اعتبره بدعة يقول : «ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة وخاصة – وفقكم الله – كتب أبي حامد الغزالي، فليتبع أثرها، وليقطع بالحريق المتتابع خبرها، ويبحث عنها، وتغلظ الايمان على من يتهم بكتمانها» ! د. حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين مجلة المعهد المصري بمدريد عدد 3، 1954، 1955 ص113.*

31 - *لأن الأمير تاشفين بن علي يحب كجالس المريدين وكتبهم، ولم يعرف عنه أنه شرب خمراً قط، أو جلس إلى قينة، أو استمع إلى مغنية – ودخل الأمير أبو إسحق بن يحيى المسوفي في سلك التصوف، حتى أن الشيخ طلب منه إزالة اللثام وان يذهب إلى السوق ويأتي على رأسه طبق به طرف، حتى يتأكد من صدقه للانخراط في الجماعة، فامتثل بما أمره شيخ الصوفية، عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وابنه على الزهد والتقشف.*

انظر هامش 26 عن وصف المراكشي لأمير المسمين علي بن يوسف

ابن الخطيب : الإحاطة ج 1 ص 448، ابن عذارى م س ص 79، التادلي : التشوف، ترجمة رقم 105 ص 254، ترجمة رقم 93 ص 238.

في الإحياء، فاضطر الأمير أن ينزل على رغبة هذه الجماعة، ويأمر بتنفيذ رأيهم بحرق الكتاب.

يبدو أن القاضي أبو الوليد ابن رشد الجد لم يشارك في هذه الحادثة والتزم الصمت، ولم يتحيز علانية للغزالي، وقد يكون صمته يعتمد على التروي والنزاهة، وعدم مسايرة الضغوط الرسمية، ويتضح ذلك من إجابته على سؤال أرسله له أمير المسلمين علي بن يوسف يسأله رأيه في علماء الكلام وأصول الديانات، فأجابه: « هم أئمة خير وممن يجب الاقتداء بهم».[32]

لقد اضطر الأمير علي بن يوسف إلى اتخاذ هذا القرار السريع بحرق كتب الغزالي في المدة القصيرة التي أقامها في قرطبة وهي حوالي الشهر، إذ كان مشغولا بما هو أهم، وهو انتهاز فرصة انشغال ألفونسو المحارب بمشاكله مع زوجته، حيث قام المرابطون بغزو أراضيهم، فكانت حملات المرابطين في ذلك العام 503 هـ. موفقة كلها، استطاع أمير المسلمين علي بن يوسف حصار طليطلة وفتح مدينة طلبيرة الحصينة واستعادة عدد كبير من الحصون الواقعة على نهر التاجة غربي طليطلة، ونجح الأمير سير بن أبي بكر أمير إشبيلية في دخول يابرة وشنترين وشنترة والاشبونة، كما استطاع الأمير بن الحاج والي بلنسية والشرق دخول سرقسطة.

فهل كان حادث إحراق كتب الغزالي في هذا التاريخ أهم من أخبار هذه الانتصارات؟ وهل كان لحرق الإحياء نفس الصدى الذي حدث فيما بعد؟

---

32 - نص الفتوى : «ما يقول الفقيه القاضي الأصل الأوحد أبو الوليد وصل الله توفيقه وتسديده ونهج إلى كل صالحة طريقه في الشيخ أبي الحسن الأشعري وأبي إسحاق الإسفراييني، وأبي بكر الباقلاني، وأبي الوليد الباجي ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام ويتكلم في أصول الديانات، ويصف الرد على أهل الأهواء». وقد رد ابن رشد : «هم أئمة خير وممن يجب الاهتداء والاقتداء بهم».

د. عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين، موقف المرابطين من علم الكلام والفلسفة ص93.

إن حرق بعض الكتب لم يكن غريبا في قرطبة، فقد أحرقت كتب ابن مسرة من قبل، وسمح المنصوري بن عامر للفقهاء بإتلاف مكتبة الحكم المستنصر الثمينة بدعوى وجود كتب فلسفة بها، وأحرقت كتب ابن حزم، وبعد الغزالي أحرق الموحدون كتب المذهب المالكي وكتب الفروع دون الرجوع لرأي الفقهاء، فقد أمر عبد المومن بحرق كتب المذهب والفروع، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة، واستمر الأمر في عهد أبي يعقوب المنصور الذي استمر في خطة ابن تومرت في محاربة كتب المذهب المالكي وإحراقها، وأحرقت كتب ابن رشد الحفيد، ومع ذلك لم تقم ضجة ولا حدثت ثورة !

إذا تتبعنا المصادر المعاصرة لحادث حرق "الإحياء"، نجدها لا تذكره أو لا تذكر التاريخ، فالقاضي عياض يقول: "نفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها فامتثل ذلك."[33]

والقاضي أبو بكر بن العربي، وهو المهم في هذا الأمر، فهو الذي يعتبر أول من أدخل كتب الغزالي، وجلس لإقرائها، وحبب الناس في قراءتها، وكان سببا في انتشارها وتداولها بين أيدي الناس، خصوصا المتصوفة التي وجدت في كتاب الإحياء مرادها ومبتغاها. وابن العربي لم يشر صراحة إلى هذا الحادث، ولم يعلق عليه، ولم يعترض على أمر السلطان، بل لقد أتلف بيده كتاب "الإحياء" الذي عليه علامة الغزالي، وهذا يرجع إلى علاقته الوطيدة بالسلطة الحاكمة، إذ كان يشغل مشاورا للأمير سير بن أبي بكر والي إشبيلية، لذلك كان متحفظا في رأيه ودبلوماسيا في تعليقاته بحكم منصبه، وإن كان يلمح إلى جهل العلماء، وأنه يجب حينما تكون هناك نازلة كبرى، أن يستشار فيها العلماء، يقول:

---

33 - يقول القاضي عياض في كتابه معجم أصحاب أبي علي الصدفي: "والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في طريقة التصوف، وتجرد لنصرة مذهبهم، وصار داعية في ذلك وألف في ذلك تواليفه المشهورة، أخذ عليه فيها مواضع وساءت به ظنون أمة، والله أعلم بسره..."

الذهبي: سير أعلام النبلاء، ص19، ص327.

«فإذا وقعت نازلة عظمى بالمسلمين، فلا ينبغي أن يقتصر فيها على عالم واحد كما كانت الصحابة تفعل، وليسأل عنها كل من يظن أن عنده علما، فإنها إذا وضعت في يد غير أهلها كان ذلك عائدا بفساد الحال، وربما تعدى إلى أكثر منه، وكفى بك داء أن تعرض علتك على غير طبيب، لا سيما إن كان هناك جسارة، وعلى إيثار الدنيا على الدين هوادة. فتلكم علة لا بد منها، وعثرة لا لـمًّا لها.»[34]

ويبدو أن فقهاء قرطبة لم يستشيروا فقهاء المدن الأخرى، وعلى الخصوص فقهاء إشبيلية، ولم يعيروا اهتماما برأي ابن العربي، وتجاهلوا معرفته وعلمه بكتب الغزالي، يقول: «فإذا ظهر عندهم من له معرفة، أو جاءهم بفائدة في الدين، وطريقة من سلفه الصالحين، وسرد لهم البراهين، غمزوا جانبه وقبحوا عجائبه، وعيبوا حقه استكبارا وعتوا، وجحدوا علمه، وقد استيقنته أنفسهم ظلما وعلوا، وسعوا في إخمال ذكره، وتحقير قدره، وافتعلوا عليه وردوا كل عظيمة إليه.»[35] ثم حدثت حوادث لم يلقوها في منصوص المالكية، فنظروا فيها بغير علم، فتاهوا وجعل الخلف منهم يتبع في ذلك السلف حتى آلت الحال ألا ينظر إلى قول مالك وكبراء أصحابه، ويقال قد قال هذه المسألة أهل قرطبة وأهل طلبيرة وأهل طليطلة، فانتقلوا من المدينة وفقهائها، إلى طلبيرة وطريقها.[36]

وقد اعترض على فتوى قرطبة فقهاء من مدن أخرى. فقد اعترض من ألمرية أبو الحسن البرجي (ت 509 هـ)[37] الذي أفتى بتأديب محرقها وتضمينه قيمتها لأنها مال مسلم، فتعرض لسخط وغضب ابن حمدين الذي كتب إلى قاضي ألمرية بعزل البرجي.

---

34 - ابن العربي: العواصم ج2 من ص 502 إلى ص 495.

35 - ن م ص 495

36 - ابن العربي : العواصم ص 2 ص 492

37 - بن الأبار : التكملة رقم 1841، ابن الآبار : معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي رقم 253، ابن عبد الملك : "الذيل والتكملة" ، سفر 5 رقم 604

كما اعترض في فاس أبو الفضل ابن النحوي[38] (ت. 513 هـ). وكتب إلى أمير المسلمين بذلك، وأفتى بأن تلك الأيمان لا تلزم، وانتسخ كتاب "الإحياء" في ثلاثين جزءاً يقرأ كل جزء منه في يوم من رمضان، وقال وددت أني لم أنظر في عمري سواه. وكتب فتوى إلى فقهاء تلمسان يدافع بها عن إحياء الغزالي.

وفي ناحية مراكش عندما علم أبو حمد عبد الله الرجراجي الأغماتي الأوركلي[39] (ت. قبل 540) بفتوى فقهاء قرطبة بإحراق "الإحياء"، كان يسأل عن الذين أفتوا بإحراقه ويدعو عليهم.

ولم يكن ابن العربي راضيا على الهجوم الفج على شيخه الغزالي واتهامه بالكفر، وإن اختلف معه في بعض آرائه، خصوصا كتابه "الإحياء" الذي ناقشه فيه عندما كان بالمشرق، واعترض على الأحاديث الضعيفة التي ملأ بها كتابه، وكان يذكر ذلك لطلبته، ويبين سعة صدر أستاذه لتقبل النقد والذي يقول عنه: «فإن معلمي كان لحلا من لحولهم، وعظيما من عظائمهم، وتا الله إني كنت محتشما له غير راض عنه، وقد رددت عليه فيما أمكن، واحتشمت جانبه فيما تيسر.»[40]

ولقد رد الغزالي على منتقديه في كتابه "الإملاء في إشكالات الإحياء" وفند كل اتهام، وبين جهل كل من حاول اتهامه بالزيغ والكفر، ووصفهم بقصر العلم، وسفهاء الأحلام وذعار أهل الإسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته، ونسبوا عليه إلى ضلال وإضلال، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة واختلال، فإلى الله انصرافهم ومآبهم، وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم، فستكتب شهادتهم ويسألون.»

---

38 - التادلي : التشوف رقم 19، الحميدي جذوة الاقتباس رقم 643

39 - التادلي: م . س رقم 33

40 - ابن العربي: قانون التأويل ص ص 560،561

لقد تم حرق "الإحياء" أو كتب الغزالي في المحرم من سنة 503هـ. حسب ما ذكر ابن القطان، وهو المؤرخ الوحيد الذي ذكر هذا التاريخ. ونقل عنه فيما بعد ابن عبد الملك المراكشي، وصاحب الحلل الموشية، وابن عذارى الذي تحفظ في ذكر التاريخ. ومن الملاحظ أنه لم يذكر في أي من المصادر المعاصرة أو اللاحقة أنه حدث رد فعل في قرطبة نتيجة حرق كتب الغزالي، فلم تحدث ثورة بعد الحادث. مع أنه عرف عن أهل قرطبة سرعة التقلب وإثارة الشغب، ووجود فئة محافظة من فقهاء المالكية التي تتربص بكل تغيير يحدث في تطبيق المذهب ووجود فئة كبيرة من أتباع ابن مسرة، وطائفة من المتصوفة (الغزالية)، فكان من المتوقع أن يحدث شغباً لهذا الحادث الخطير، خصوصا وأن المدينة قد خلت من الحامية المرابطية التي خرجت للغزو مع الأمير علي بن يوسف، ولم يذكر أن السلطة سجنت أو تابعت أحدا.

ما حدث هو العكس، فقد انتشر الإحياء بين المتصوفة، خصوصا الذين عرفوا بالمريدين، ولم يؤثر حادث الحرق على تداول الإحياء، وكان من الممكن أن تمر حادثة الإحراق كأي حادثة سابقة، لكنها استغلت فيما بعد الإحراق بمدة، بعد ادعاء ابن تومرت المهدوية. فابن القطان مؤرخ الموحدين والموالي والمنافق لهم، كان مؤمنا بالمهدي وآرائه ومن المعظمين والمدافعين عنه وعن مهدويته، فقد حاول من خلال كتابه نظم الجمان أن يرمي المرابطين وفقهائهم بكل نقيصة، وتبدو شماتته الواضحة عند كل هزيمة للمرابطين مع النصارى، فهو لم يشر إلى انتصارات المرابطين في هذا التاريخ، وإنما ركز على حرق الإحياء، ويقول: "وقد كان حرق هؤلاء الجهلة لهذا الكتاب العظيم الذي ما ألف مثله سببا لزوال ملكهم واندثار سلكهم، واستئصال شأفتهم على يد هذا الأمر العزيز، القائم بالحق، المظهر بالسنة، المحمي بالعلم"[41].

---

41 - ابن القطان: ن. م. ص. 42

لقد روج ابن القطان من خلال حادثة حرق الإحياء لأكذوبة ابن تومرت الذي يدعي فيها لقاءه بالغزالي[42]، وبأن الغزالي دعا على المرابطين بزوال ملكهم بسبب حرق "الإحياء" وأن يكون ذلك على يد ابن تومرت، كما ادعى أن الغزالي أعطاه كتاباً كان يضمن به على الناس هو كتاب "الجنة من علوم آل البيت" فيه صفات المهدي المنتظر الذي سيظهر بالسوس الأقصى وهو من ذرية الرسول، وبذلك يتم الترويج لاتهام الغزالي بصلته بالباطنية، وهذا ادعاء كاذب لا يصدقه إلا السذج فالغزالي لا يعرف أين تقع سوس.

ولقد استغل ابن تومرت فيما بعد حادثة حرق إحياء الغزالي بعد أن نسي الناس أمرها، لإحيائها من جديد ضد المرابطين مع أنه لم يعمل ولم ينتفع بآراء الغزالي فقد كان مخالفاً لها على طول الخط، فمبدأ الاجتهاد الذي يعلق عليه الغزالي أهمية كبيرة في استنباط الأحكام والذي سلكه واتفق عليه أئمة المذاهب السنية ينكره ابن تومرت كمصدر من مصادر الشريعة، لأنه يتشبع بثوب الإمام المعصوم الذي لا تبحث أراؤه ولا تناقش أحكامه، ونظرية الإمام المعصوم من أكثر ما عارضه الغزالي وسخر منها، وكان شديد العداء للثورة على الإمام لما تؤدي إليه من الفتنة خلافا للمهدي الذي شحن العامة ضد السلطان والحث على محاربتهم، يقول في رسالة له: "واجتهدوا في جهاد الكفرة الملثمين، فجهادهم أعظم من جهاد الروم وسائر الكفرة بأضعاف كثيرة لأنهم جسموا الخالق سبحانه، وأنكروا التوحيد وعاندوا الحق."[43] ويقول في رسالة أخرى: "وجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر، لا عذر لأحد في تركه ولا حجة له عند الله." وفي خطابه هذا متأثرا بالخوارج والمعتزلة.

---

42 - الغزالي ترك بغداد إلى نيسابور 498 هـ، ثم ترك التدريس في نظامية نيسابور بعد مقتل فخر الملك ابن قطام الملك على يد أحد الباطنية في اليوم العاشر من محرم 500 هـ، ورحل إلى بلده طوس واتخذ بجوار بيته مدرسة للطلبة، إلى أن توفي في جمادى الآخرة 505 هـ.

د. عبد الرحمن بدوي ومصادره التي ذكرها في كتابه مؤلفات الغزالي ص25.

43 - رسالة للمهدي في كتاب أخبار المهدي للبيدق.

*وانظر رسالتنا عن المهدي بن تومرت وعلاقته بالباطنية في كتابنا أضواء جديدة عن المرابطين.*د. عابد الجابري، مكونات فكر الغزالي، سلسلة ندوات كلية آداب الرباط رقم 9 ص68.

ولا شك أن ما يحدث في عالمنا الإسلامي بين فترة وأخرى من قبل هذه الدعوات التكفيرية، التي تشغل الدولة عما يحدث داخليا، وما يحيط بها من أخطار خارجية، سيؤدي إلى إضعافها واستنفاذ مواردها فينعكس هذا على نموها الحضاري.

خاتمة:

إن قيمة كتاب "الإحياء" ليست في مادته وحدها، بل في طريقة عرض هذه المادة وتوظيفها وكيفية استثمارها. فلقد صنف الغزالي التصوف صنفين علم المعاملة وعلم المكاشفة، وجعل كتاب الإحياء خاصاً بعلم المعاملة العلم الذي أقامه موازياً وموازناً لعلم الفقه الذي يشرح كيفية أداء فروض الدين العملية، من طهارة وصلاة وصوم وزكاة وحج، أداء جسمانياً واجتماعياً، أما علم المعاملة فقد جعله علماً يشرح كيفية أداء تلك الفروض نفسها أداء روحياً، بحيث يصبح الفقه فقهان : فقه المعاملة الجسمانية وفقه المعاملة القلبية الروحية.

أما علم المكاشفة فقد اكتفى في شأنه بما اكتفى به الأنبياء مع الخلق فاقتصر مثلهم على الرمز والإيحاء على سبيل التمثيل والإجمال. لقد جعل الغزالي من التصوف فقهاً آخر لا يتعارض مع الفقه المعروف، بل يكمله بما يمده به من أبعاد روحية وجعل من هذا الفقه الروحي الذي هو بمثابة الباطن للشريعة مدخلاً إلى علم المكاشفة الذي هو بمثابة الباطن للعقيدة. فأدخل التصوف بقسميه العملي والنظري إلى دائرة السنة من باب السنة أي الفقه.

هيهات لا يأتي الزمان بمثله **** إن الزمان بمثله لشحيح


واعتصموا بحبل الله جميعا
ولا تفرقوا

الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد السعدي الأول

الأستاذ الدكتور محمد رزوق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
عين الشق – الدار البيضاء

حاول الملوك السعديون بعد تأسيس دولتهم أن يفتحوا الباب على مصراعيه للمهاجرين الأندلسيين، ويقدموا لهم كل المساعدات. سواء على صعيد العمليات الجهادية، أو على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي. بل تعدى الأمر ذلك إلى تقديم المساعدات للموريسكيين بإسبانيا نفسها، رغم المحاولات التي كانت تقوم بها هذه الأخيرة لمنع أي اتصال بين الموريسكيين داخل إسبانيا وخارجها. لكن الضغط التركي أفشل الكثير من المشاريع الجهادية التي كان الملوك السعديون ينوون القيام بها ضد الإسبان. والتجأ بعضهم في الأخير إلى البحث في الجانب الآخر، لدى المعسكر البروتستانتي، عن حلفاء جدد يعوضون بهم الأتراك.

عبد الله الغالب أمام التجربة

ظل الوجود الأندلسي قويا بعد موت محمد الشيخ، فقد ذكر أحد البحارة الألمان المقيمين بإسطنبول (حوالي سنة 1560م) أن الشائعات كانت تروج بمركز الخلافة العثمانية حول وجود 80 ألف أندلسي، التجأوا إلى فاس، وأنهم عازمون على الانتقام من محاكم التفتيش الاسبانية[1]. لكن إن كان الأمر عاديا في عهد محمد الشيخ ولم يثر أي مشاكل- إذ

---

1 - CuyTurbel – Delof, l'Afrique Barbaresque dans la littérature Française aux XVIè Siècle. P 350

ملاحظة : ربما كان هذا الرقم (80 ألف) فيه مبالغة إلا أنه يدل في نفس الوقت على أن العدد كان كبيرا جدا.

أن الجالية الأندلسية بالمغرب أيدت تأييدا مطلقا الشريف السعدي سواء في مواجهته للمسيحيين أو الأتراك فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة لابنه عبد الله الغالب الذي سيدخل في علاقات جديدة معها، خاصة عندما اتخذ إجراءات خطيرة في حقهم، ذلك أنه في عام سبعين وتسعمائة هجرية (1562 – 1563 م) أمر الغالب بجمع أهل الأندلس الذين خرجوا في الجالية على يد شيطان كان من أهل قرية بجبل غرناطة اسمه سعيد بن فرج الدغالي، وأخاه أحمد خرج بتطوان، وكانا يعملان في البحرية بها، فنزلا على كبير دولة الغالب الحسن بن أبي بكر، فزين للغالب جمع أهل الأندلس على يد هذا الدغالي، فرسم له بذلك، ودار عليهم في بلاد المغرب وجمعهم طوعا وكرها، وكتب منهم في الديوان أربعة عشر ألفا، ونقلهم إلى مراكش فاقطعهم الجانب الغربي منها، وهو روض الزيتون فاتخذوا فيه البساتين، وأعطوهم السلاح وسموا قائدا..... عليهم الدغالي....".[2]

لكن ماذا كان موقف الجالية الأندلسية تجاه هذه الإجراءات التي اتخذها عبد الله الغالب؟ذلك ما سيوضحه نفس المصدر في النص الآتي : ".... وكان أهل الأندلس أكرههم على الجندية وقهرهم عليها، وولى عليهم من لا يرضون ولايته، فكانوا يتمنون له النكب ليخرجوا من ربقة الرقية إلى الحرية...".

وهنا يمكن طرح سؤال رئيسي : لماذا أمر عبد الله الغالب بجمع الجالية الأندلسية بالمغرب وإدخالها إلى الجيش، هل كان بدافع الحاجة أم أن الأمر كانت وراءه أسباب خفية؟ سنحاول أن نجيب من خلال عدة ملاحظات حول هذا الإجراء:

- أولا: نشير أولا إلى أن النص يذكر أنهم جمعوا "طوعا وكرها"، أي أن طائفة من هذه الجالية أتت "كرها" وللأمر خطورته.

---

2 - أبو قاسم الزياني، الترجمان المعرب، ص 350. ملاحظة : كان عبد الله الغالب قبل ذلك (حوالي سنة 1560) قد عين لليهود المطرودين من اسبانيا مكانا خاصا لهم بمراكش، وظلوا في نفس المكان إلى غاية القرن العشرين.انظر: ,Pierre Flamand, Diaspora en terre d'islam PP. 120-121.

●ثانيا: ضخامة الرقم (14 ألف)، فهو رقم كبير جدا إذا ما قورن بعدد القوات التي كانت لجيش عبد الله الغالب (حوالي 30.000 جندي)[3]. فهل أراد بذلك أن تكون هذه الجالية عامل توازن تجاه مختلف عناصر الجيش المغربي، ويمكن استخدامها في جمع ثروات داخلية، وتكون بالتالي أداة طيعة في يده، أي بعبارة أخرى "انكشارية أندلسية" داخل الجيش المغربي.

●ثالثا: كما يشير النص أيضا إلى أنه أقطعهم مزارع وضياع في حي رياض الزيتون بمراكش، ألا يمكن أن يكون هذا الإجراء ترضية لهذه الجالية مقابل الخدمة العسكرية، وتعويض لها مما ضاع منها في الأندلس، وخاصة أن مهارتهم في الميدان الفلاحي معروفة إلى جانب مهارتهم العسكرية؟

●رابعا: ويشير النص أيضا إلى أن أعيان أهل الأندلس وبيوتاتهم كانوا يحقدون على عبد الله الغالب، بسبب إدخالهم جميعا في الجندية. وهو رد فعل طبيعي، إذ أن كثيرا من أفراد هذه الجالية كانوا يمارسون التجارة والصناعة والفلاحة، التي كانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة، وإدخالهم إلى الجندية يحرمهم من كل هذه الأرباح.

●خامسا: يشير النص أيضا إلى أنهم لم يكونوا راضين بتولية سعيد ابن فرج الدغالي عليهم، ولا شك أن لهم أسباب موضوعية ضد هذه التولية : إما لماضيه بالأندلس، أو لعلهم كانوا يعلمون مسبقا أن العملية كلها كانت في سبيل التقرب من السلطان السعدي وكسب نفوذ لديه، أي بالتالي مصلحة ملموسة له ولحاشيته.

●سادسا: يشير النص أخيرا إلى أنهم اعتبروا هذه العملية بمثابة استرقاق لهم وأنهم يتمنون الخلاص منه ومن إجراءاته وهذه قضية خطيرة ستكون لها الآثار السلبية على المدى البعيد.

---

3 - Andrzej Dziubinski « l'Armée et la Flotte de Guerre Marocaines » in Hespéris-tamuda, Vol . XIII – Fascicule Unique, 1972, P 66.

هذا عن علاقة عبد الله الغالب بالجالية الأندلسية داخل المغرب، وردود الفعل اتجاه إجراءات السلطان السعدي، فما هو موقفه من التطورات الجديدة التي ستعرفها قضية الجالية الأندلسية بإسبانيا نفسها بعد إعلان هذه الأخيرة لثورتها بغرناطة سنة 1568م، خاصة أنها كانت تدخل في حسابها مساعدة عبد الله الغالب وجاليته الأندلسية.

موقف عبد الله الغالب من ثورة غرناطة[4]:

تشير المصادر إلى أن محمد بن أمية قائد الثورة بعث بسفارة برئاسة فرناندو الحبقي (أحد قادة الثورة) إلى السلطان السعدي[5] كما أكد ذلك المؤرخ الجنابي قائلا : "وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة، قام أهل الأندلس على إسبانيا واجتمعوا بالجبل الأخضر بقرب غرناطة وأموا عليهم رجلا من أولاد الملك أبي سعيد ابن الأحمر، فاقتتلوا مع قائد عسكر إسبانيا فهزموه، فنال الكفار منهم خوفا عظيما، وأرسل هؤلاء إلى الشريف مولاي عبد الله يستمدونه فلم يمدهم بسبب قلة المراكب عنده ولعلة أخرى..."[6].

غير أن صاحب **تاريخ الدولة السعدية** له رأي مغاير في الموضوع، إذ ذكر- وهو بصدد الحديث عن الثورة - : ... فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقا وغربا وهم يناشدونهم الله في الإغاثة، وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله لأنه هو القريب إلى أرضهم، وكان قد قوي سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده، فأمرهم غشا منه بأن يقوموا مع النصارى يثق بهم في قولهم بظهور فعلهم، فلما قاموا على النصارى لملكه الزائل...."[7].

---

4 - سبق أن تعرضنا لمراحل هذه الثورة ونتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي، وكذا موقف الجزائر والأتراك.

5 - محمد عبده حتامله، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد فليب الثاني، ص 43.

ملاحظة : أورد المؤلف في الهامش 1 من نفس الصفحة عددا من المصادر الاسبانية التي اعتمدها.

6 - البحر الزخار والعليم التيار، ص 535

7 - تاريخ الدولة السعدية، ص 37 – 38.

وعن السبب الذي جعل عبد الله الغالب لا يقدم المساعدة للموريسكيين في ثورتهم، يذكر نفس المصدر: "... وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات، وأنه استشار معهم، واشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب، وقصده بذلك تعمير سواحله ولكي يكون له منهم بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم، ينتفع به في مصالح ملكه. فلما قاموا على النصارى عن اذنه، وانشغلوا معهم بالقتال، أرسلوا رؤسائهم وكبرائهم وذوي شأنهم إلى العدوة ليستغيثوا بالسلطان، وبجماعة المسلمين في الإعانة، وتركوا أهل الأندلس كلهم متمنعين في جبال غرناطة، وهم يقاتلون النصارى. فلما وصلوا إليها تراخى عنهم وطول عليهم مقامهم. فاتهم المكاتبة من أهلهم بأنهم اطلعوا على مكاتبات بين السلطان وبين النصارى، ومصادقة وتدبير على المسلمين، فصح عندهم ذلك، وظهر بالإمارات الدالة عليه، من كثرة وُعودهم ومرور الأيام عليهم بلا فائدة. فأمروهم أن يصطلحوا مع النصارى على أن يتركوهم يجوزوا لهذه العودة فأجابهم النصارى لذلك فقطع جلهم وتفرقوا في بلاد المغرب...." [8]

وفعلا فقد فشلت الثورة وهاجر عدد منهم إلى المغرب واستخدمهم الشريف السعدي في الهدف الذي أراده : "وأخدم الجيش من أهل الأندلس الفارين بدينهم من الكفر، وجعل يشق عليهم في الخدمة، وجمع منهم جيشا عظيما ليتعصب بهم ويتقوى بجمعهم، فصلح بذلك ملكه وعهد سلطانه.[9]

انه بقدر ما كان صاحب التاريخ المذكور متحاملا على عبد الله الغالب بقدر ما كان الجنابي (وهو قريب من الأحداث) موضوعيا إذ أوضح أن السبب في عدم تقديمه المساعدة يرجع إلى العاملين: قلة الأغربة والمراكب وعلة أخرى.

---

8 - تاريخ الدولة السعدية، ص 38. ملاحظة : ورد في رسالة السفير الفرنسي بمدريد إلى شارل التاسع أنه : وقع اتفاق يسمح للموريسكيين بموجبه بالخروج إلى المغرب أو غيره من بلدان شمال إفريقيا، وأن عددا كبيرا منهم قد جاز إلى المغرب.

9 - المصدر السابق ص 39

ولنبدأ بالسبب الثاني (أي بالعلة الأخرى).

لقد تخلص الجنابي من ذكر السبب بطريقة ذكية، إذ ترك الأمر عاما بدون تخصيص.

إن "العلة" التي تجنب ذكرها تتلخص في كون عبد لله الغالب التجأ إلى التقارب في سياسته مع دول أوربا الغربية والعمل على مهادنتها،[10] وذلك تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب، فقد كانت علاقاته بأوربا الغربية تشكل عامل توازن بالمنطقة، يستخدمه في مواجهة الأطماع التركية، أي أنه كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة: إما التنازل عن نقط معينة للمسيحيين أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك. ولا علاقة بين ما يورده المؤرخ المجهول عن شخصية عبد الله الغالب وبين ما توردہ المصادر التاريخية المعاصرة له، إذ تؤكد هذه المصادر على أنه عرف بالورع والصلاح، وإن المغرب لم يكن في عهده أبدا غافلا عن القضية الأندلسية، فهذا المؤرخ الجنابي وهو بصدد الحديث عن السبب الأول الذي أدى إلى عدم تقديم المساعدة إلى المورسكيين (قلة الأغربة والمراكب) : "فمن ذلك اليوم (أي منذ فشل ثورة الموريسكيين بغرناطة) شرع في تجهيز الأغربة وإنشاء المراكب حتى حصل عنده نحو ثلاثة غرابا، وهم يسيرون الصيف والشتاء في وجه البحر فيحتمون من الكفار ويأسرون منهم. وبلغنا أنه عمل منشغل بتكثير الأغربة ويجتهدون فيها، وكانت قلة الأغربة عندهم بسبب قلة الأخشاب الصالحة لذلك عندهم، فالآن أذن لهم في نقل الأخشاب من الروم إلى فاس. فنجد الشريف المذكور في أمر العمارة والناس يقولون مراده فتح الأندلس لأنه علم أن ذلك هين بسبب الرعاية المتمكنين فيها...".

10- Andrzej Dziubiniski, Op. Cit. PP. 67-68 :

سمح للإسبان بالاستيلاء على بادس وتراجع عن فتح البريجة (الجديدة) المحتلة من طرف البرتغال، وتنازل للفرنسيين عن القصر الصغير.

وهذا نص واضح ودليل على مدى تعاطف عبد الله الغالب مع القضية الأندلسية وانشغاله بها، خاصة أن المغرب، رغم الظروف المحيطة به، لم يبق مكتوف الأيدي أمام اندلاع الثورة، ففي رسالة بعث بها السفير الفرنسي إلى شارل التاسع مع مدريد (5 نونبر 1569) ذكر أنه خرجت 9 مراكب من العرائش في 22 شتنبر 1559 تحمل عددا من المجاهدين الذين قاموا بنهب جزيرة lanzerotte وموانئ جزر الكناري، وأحرقوا المدينة والكنائس وأسروا العديد من المسيحيين وكانوا يصرحون بأنهم سيقطعون الطريق بين إسبانيا والعالم الجديد[11]، ومن المعلوم أن المقصود من هذه العملية أن تنشغل إسبانيا في جهتين أو أكثر، لتشتيت مجهوداتها قصد التخفيف من الضغط على الثورة، وللانتقام في نفس الوقت من الأعمال الوحشية التي يقوم بها الاسبان ضد رجال الثورة[12].

الجالية الأندلسية في عهد المنصور

كانت سياسة المنصور تجاه الجالية الأندلسية تتميز بصفة عامة بالاهتمام المشوب بالحذر. فقد واجه هؤلاء وهو في أوائل حكمه، فكان حسمه في الأمر في مستوى ما تتطلبه المرحلة، لكنه من جهة أخرى لم يفتأ يدافع عن القضية الأندلسية في المحافل الدولية، ويبحث عن حلفاء له لتنفيذ مخططه في تقديم المساعدة للموريسكيين داخل اسبانيا نفسها، وتسهيل سبل الانتقال إلى المغرب، وفتح مجالات السعة والارتزاق به، أي بمعنى آخر فإن المنصور كان يقدم كافة المساعدات لأفراد هذه الجالية ما دامت تعمل تحت سلطته، وما دامت تحترم التزاماتها بالكف عن التعامل مع أعدائه، خاصة الأتراك، أما إذا أبدت طموحا ما نحو السلط والنفوذ فإنه كان يتصدى لها وبقوة.

---

11 - S.I.H.M 1ére série, France 1 : 290

12 - انظر حول إنشاء أسطول لتحرير الأندلس من طرف محمد الشيخ وعبد الله الغالب: Andrzej Dziubinski, op. cit. pp. 92-93.

لقد تأكد المنصور، ومنذ أيام المعتصم، من النوايا الخفية لقواد الأندلس، ومن علاقتهم بالأتراك. وازداد الأمر وضوحا مباشرة بعد معركة وادي المخازن، وإبان ثورة ابن أخيه داود ابن عبد المومن، إذ كانوا يرغبون في تولية عميل لهم بالمغرب مما جعلها تتحول إلى مؤامرة أندلسية بحماية تركية، لذلك بادر المنصور إلى حسمها منذ البداية.

دور سعيد بن فرج الدغالي وبن أخيه محمد : اكتشف المنصور أمره وهو بعد بالسوس، لذلك كان حذرا منه فبعد معركة وادي المخازن أتت جموع القبائل من سوس إلى مراكش ومنها إلى فاس، لتهنئة الخليفة الجديد. إلا أن الدغالي تخلف بمراكش لأنه كان عازما على الثورة، لكنه تحت ضغط القبائل، اضطر للإتيان معهم إلى فاس[13]. غير انه ما لبث يناور للتخلص من بقائه بجوار المنصور بفاس : "...ولم يلبث الدغالي أن استعمل المرض وشكى إلى الخليفة وخامة المنزل وفساد مزاجه بفاس، وطلب منه الإذن في الذهاب إلى سلا، التي كانت تحت ولايته من عهد المعتصم،ويستنيب بها محمد بن أخيه.فتفطن الخليفة لمكره وانطوائه على النكث، واعتل عليه في الأذن، وأظهر له غاية الحاجة إلى حضوره بمجلسه للمفاوضة معه في أمور سلطانه، وصالح مملكته، توثقا بنصحه، واعتدادا بمخالصته...". ورغم رفض المنصور منحه الإذن بالذهاب، فقد مضى في تنفيذ تخطيطه: "...فلم يصرفه بذلك كله عزمه وصمم على الغدو، وألح في الطلب، فسد له الخليفة باب الإذن، فاجترأ حينئذ لحتفه... مع الجهد والفضاضة إلى الغاية، فخرج نهارا من غير إذن....[14] فبعث له المنصور أولا مع القائد أبي عبد الله محمد بن سليمان، لكي يرجع عن ما صمم عليه، لكنه استمر في تنفيذ مخططه، إذاك اتخذ المنصور قراره الحاسم بأن سرح إليه القائد أبا إسحاق ابراهيم بن محمد السفياني وأحمد الزواوي، وحدو الزواوي، وعبد العزيز بن يخلف

---

13 - انظر عبد العزيز الفشتالي، مناهل، ص: 52-43.

14 - المصدر السابق ص 43

اليفرني وعبد الله التلمساني، وكان هذا الاختيار مقصودا (لاستحداث العداوة بينهم وبين عساكر الأندلس)[15].

وقد كانت خطورة ما كان يهدف إليه الدغالي معروفة إلى حد كبير. فهذا ابن القاضي، مثلا، يسجل في ترجمته : "...وكان سعيد هذا، قائد جماعة الأندلس. غدر بجماعته، وهرب إلى عبد الملك، فكان سبب خراب ملكه... وخدم مولانا أبا العباس أحمد المنصور، وراح إلى سوس في بعض أغراض الملك، فحدثته نفسه هناك بالثورة على مخدومه، وغدره أيضا، فما زال به المخدوم حتى قبض عليه، وفتك به وبجماعة من طائفته المفسدين، لشقهم العصا، وخلعهم ربقة البيعة من أعناقهم..."[16]

دور محمد زرقون الكاهية : لم يكن أقل خطر من سابقه، فقد (..جمع كلمة الأجناد كافة على الإفساد، فاضطربت الأحوال، ومرج أمر الناس، وتحقق أمير المؤمنين حينئذ بذلك مما انطوى عليه محمد، من العداوة والبغضاء لسلطانه، وجده في هدم بناء دولته، وسعيه في فساد ملكه، وتفريق أمر الجماعة ... وكان القائد الأندلسي يهدف بذلك إلى تولية الأمير داود بن عبد المومن، الذي كانت تربطه علاقات قوية مع الأتراك، فهي في النهاية مؤامرة أندلسية بحماية تركية، لكن المنصور حسم في الأمر من جديد، وفوت بذلك على الأندلسيين ضرب الدولة وهي في مهدها.

أبو الفضل الغري: كان مصيره مثل مصير سابقيه، إذ كشف أمره : "... صار (القائد الأندلسي) يسمو بنفسه إلى العظام التي ليس لها بأهل، من تقليد الأعمال، وولاية الثغور، يقود عساكر الأسنة. وكان قد دخل أيضا الدغالي ظهيره في الخلاف، ومساعده بغدر في شأن استيام الثورة التي جنح إليها، واحتمل في أمرها بسوس، ولما سطا أمير المؤمنين بالدغالي وعلم ما بينهما من الخله، واجتماع الكلمة على الشر، حذر مغبة أمهاله،

---

15 - نفس المصدر والصفحة.

16 - درة الحجال، 3 : 302-303

وأكد ذلك ما كان من انقباضه عن مجلس الخليفة في تلك الأيام، باستعمال المرض، فاستراب لذل به، وتقبض عليه يوم الفتك بالدغالي وأصحابه، وجلب إلى مصرعه، فألحقه بهم، وقتل النفر الأربعة، جميعا ليوم واحد في شهر رجب، من عام ستة وثمانين – شتنبر 1578"[17]

وقد عد قتلهم انتصارا كبيرا لسياسة المنصور وحذره، خاصة أن مكانتهم في الدولة كانت كبيرة جدا، وكانوا على اتصال دائم مع الأتراك : (... واعتدوا (المغاربة) قتلهم فتحا ثانيا، لما عقبه من التمهيد واطمئنان الأحوال. واقتلعت جرثومة الشقاق باقتلاع جدورهم، واستقامت أحوال الجند من يومئذ، رهبة ورغبة، واستوت قدم أمير المؤمنين في ملكه، وأجمع الرحلة لمراكش دار الخلافة وعنصر الدولة..."[18]

علاقة الأندلسيين بثورة الأمير داود بن عبد المومن:

كانت للأمير داود علاقة قوية بالقادة الأندلسيين وبالأتراك على حد سواء. لذلك بادر المنصور، بمجرد القضاء على القادة الأندلسيين، إلى فرض نوع من الإقامة الاجبارية عليه. (وتوخى لذلك ما ينشأ عن بقاء داود وراءه، وحذر مغبته، فرأى جلبه ومقامه لديه أحوط على الكلمة ...)[19]، لكنه تمكن من الفرار وإعلان الثورة ضد عمه بسوس (شعبان سنة 987 /1579) بجيش يضم العديد من الأندلسيين والأتراك (فلحق بسوس ونزل على المنحرفين عن الطاعة حديثا، حتى وإن لم ترسخ فيهم قواعدها كل الرسوخ، فلبوا داعيته وأعلنوا بالعصيان وتواطأوا على الشقاق كافة ...)[20]. وقد كان داود يسعى إلى الوصول إلى درعة والصحراء المغربية الشرقية من أجل الاتصال بالأتراك في الجزائر[21]، لكن المنصور كان

---

17 - *مناهل الصفا، ص 46*

18 - *المصدر السابق ص 47*

19 - *المصدر السابق ص 56*

20 - *المصدر السابق ص 57*

21 - *عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 111*

حازما أيضا في مواجهته للثورة إذ أرسل أحد قواده المشهورين (محمد بن ابراهيم بن بجة) للحسم في أمرها وتمكن من ذلك بالفعل.

هكذا ضاعت على المنصور، أمام ضغط الأتراك[22]، فرصة تقديم المساعدة للموريسكيين بإسبانيا بل وتحرير ما تبقى من الثغور المحتلة[23]، إذ اضطر للتقارب من الإسبان[24].

ومن الطبيعي أن يكون للتقارب المغربي الإسباني آثار سلبية على الموريسكيين بإسبانيا، ففي صيف 1580 اكتشفت مؤامرة موريسكية واسعة النطاق، وقد يكون سفراء المنصور أنفسهم هم الذين أفشوا سرها للإسبان[25]. وكان المنصور يراقب أفراد هذه الجالية الأندلسية، ويتتبع تحركاتها. فمن الممكن أن يتصلوا ببعض أفراد البيت المالك نفسه، ممن لهم طموح ما (كما فعلوا مع داود بن عبد المومن). ومن الممكن أن يقدموا مساعدات للأتراك قصد غزو المغرب لذلك فهو (يتفقد أمر عدوه قبل أن تشتد شوكته وتكثر شكته، ويعالجه قبل أن يعضل ويعجز دواؤه"[26].

---

22 - أعطيت الأوامر إلى علوج على قائد الأسطول العثماني لغزو المغرب وقد وصل علوج إلى الجزائر في جمادى الثانية 989هـ/ يونيو 1581 بينما كان المنصور يرابط بقوات جرارة عند نهر تانسيفت.

23 - كان العلماء يلحون كثيرا على ضرورة استغلال نصر معركة وادي المخازن في سبيل استرجاع الثغور المحتلة، وهذا الشيخ رضوان الجنوي – مثلا – يذكر في رسالة موجهة للمنصور : "...وإلى هذا فالله، الله في الحزم وامضاء العزم وهو ما ظهر لرعايتكم من انتهاز الفرصة الممكنة في هذا الوقت، من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلا وسبتة فإنهم في هذه الساعة في دهش وخزي وخذلان بما أمكن الله منهم، ولا أظن – نصركم الله – مثل هذا يخفي عليكم حتى تحتاج أن نذكركم به..."

انظر : أحمد المرابي الأندلسي، تحفة الإخوان، ص 432 – 424.

24 - ذهب المنصور إلى حد أنه وعد الاسبان بالتنازل لهم عن العرائش انظر :

- S.I.H.M. 1ére série, payes-bas, 1 : 191 – 194.
- S.I.H.M. 1ére série, France 1 : 512.

25 - Braudel la méditerranée .... 2 : 126

26 - أحمد بن القاضي، المنتقى، 1 : 417

قضية الأندلس في علاقات المنصور الدولية:

كانت قضية الأندلس تشكل ركنا أساسيا في سياسة المنصور الدولية، فقد اتجه إلى كافة الدول التي تكن عداء ما للإسبان للتحالف والتنسيق معها قصد تحقيق أهدافه في تحرير الثغور المغربية، وفي تقديم المساعدة للموريسكيين بإسبانيا في مرحلة أولى، وغزو الإسبان في عقر دارهم في مرحلة ثانية، فكل تصرفاته كانت تسير في هذا الاتجاه المحدد مسبقا. هكذا اتجه المنصور أولا إلى التعاون مع الانجليز ضد فليب الثاني، وكان محور هذا التعاون : حل المشكلة البرتغالية، وذلك بتقديم المساعدة لدون أنطونيو قصد استرجاع عرشه[27]. وقد تعززت الرغبة في التعاون بعد فشل الاسبان في حملة الأرمادا (Armada) ضد الانجليز (30 يوليوز – 10 غشت 1588)، إذ أرسلت الملكة اليزابيت بالبشرى إلى المنصور، مخبرة إياه بأن الأمير دون كرستوف،إبن دون أنطونيو سيبقى رهينة عنده بالمغرب، مقابل المساعدة المادية التي سيقدمها لدون أنطونيو لاسترجاع عرشه[28]. كما أن المنصور كتب إلى ولاته يطلعهم على الأمر، ويؤكد لهم في نفس الوقت زوال الخطر الاسباني الذي كان يهدد المغرب، بل عزمه على تقديم المساعدة للمورسكيين في إسبانيا نفسها : "... كان ذلك (انتصار الانجليز في الأرمادا) والمنة لله لهذا الأمر العزيز عنوان الأقابل والظفر، وعلامة على إنجاز وعده المنتظر، في الاستيلاء بحول الله على بلاده وأقطاره، ومنازلته بجنود الله المظفرة في عقر داره، واستنقاذ النقدة المتغلب عليهم في الأعصر السالفة والدول الماضية من بين أنيابه والظفر، وبخاصة بلاد الأندلس التي هي بحول الله على سيوفنا أهون مطلوب، وأيسر موهوب، فهي الوديعة المستردة بحول الله على ايدينا، والقلادة التي خبأتها الأيام لجيدنا وقد آذن بدنو زمان ذلك إن شاء الله وميقاته، وبلوغ ساعته البادية الاشتراك وإقاته..."[29]. وفعلا فقد سر الموريسكيون بهزيمة

---

27 - S.I.H.M. 1ére série, France 1 : 513
28 - S.I.H.M. 1ére série, France 2 : 151

29 - رسائل سعدية 6 : 155 .

الاسبان، واعتبروها مؤشرا للخلاص، فأعلنت الثورة بأراغون في نفس السنة (1588)، ولا يستبعد أن يكون للمنصور يد في ذلك : "... وهو الآن، أيده الله، لهذا العهد من عام سبعة وتسعين (وتسعمائة) واقف على قدم الأهبة والاستعداد. لذلك توصلا بما ينشأ عن ذلك من اتساع نطاق الملك وامتداد جناح السلطان وانفساخ مجال الأعمال وكثرة الاتفال، إلى التفرغ لما صرف إليه، ايد الله عزمه، وجعله قصده وهمه، من جهاد المشركين وإغراء أرضهم في الجنوب والشمال بعساكره الأمامية، وموالات البعوث إلى أقطارهم، حتى ينجز الله وعده الكريم في إعلاء كلمة الحق...[30]" وقام بعمل مواز لذلك داخل المغرب نفسه، إذ أمر الجالية الأندلسية بتطوان بالهجوم على سبتة، في شهر دجنبر من نفس السنة (وكادوا أن يستولوا على سبتة بما أتيح لهم من الظهور...[31]"

كما شاركت الجالية الأندلسية بمراكش في مظاهرة عدائية ضد الاسبان، إذ قصدت بيت السفير الاسباني بالمغرب DIEGO MARIN، وقامت بإضرام النار فيه، مما أجبر السفير الاسباني ومن معه على استعمال الأسلحة النارية ضد المهاجمين[32]. وكان المنصور حريصا، في تحالفه مع الانجليز، على بناء أسطول قوي يمكنه من تقديم مساعدة فعلية للجالية الأندلسية داخل المغرب وخارجه : (....وهو اليوم، أيده الله، لهذا العهد بصدد الاكثار من الأساطيل، رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين، قوي الأسر بحمد الله وافر العدد والمدد ... حتى يبلغ أمل الاسلام في الجهاد ويفتح من أرض الأندلس من أقصى البلاد والأقطار البعاد ...[33]". وقد حاول فليب الثاني أن يواجه المنصور بالموريسكيين أنفسهم ليفسد عليه "مشاريعه الأندلسية"، إذ يذكر الفشتالي في هذا الصدد: "... وأنس (فليب الثاني) أيضا نار العزم تلتهب من جانب العناية الأمامية المولوية

---

30 - عبد العزيز الفشتالي، مناهل، ص 81.

31 - المصدر السابق، ص 96

32 - S.I.H.M. 1ére série, Angleterre,2 : 97

33 - مناهل الصفا، ص 197

المنصورية التهابا، وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا، والهمم الشريفة قد همت بتجديد الأسطول، وكلفت بالاستكثار من المراكب الجهادية، والآلات الحربية، بما كان مولانا أمير المؤمنين، ايده الله، يومل من فتح جزيرة الأندلس وعبور البحر اليها بجنود الله وعساكر الإسلام، لتجديد رسوم الايمان بها، وافتكاكها من دي الكفر المتغلب عليها ....فأمل الناصر لذلك ورمي به الى وراء البحر .....[34] وفعلا أبحر الناصر ابن الغالب بالله، اللاجئ بإسبانيا آنداك، من مالقة يوم 7 ماي 1595، ومعه قوات جرارة معظمها من الموريسكيين الذي كانوا يعيشون تحت وطاة محاكم التفتيش القمعية، فوجدوا في ذلك فرصة لتحقيق أمانيهم باللجوء الى شمال افريقيا، فرارا من جحيم الاضطهاد. كما وجدها فليب الثاني كذلك فرصة للتخلص منهم، خاصة أنه، كما المحنا الى ذلك، كان يخطط لطردهم[35]. نزل الناصر، بمدينة مليليه المحتلة، ومنها اعلن الثورة ضد عمه المنصور. وأهمية ثورة الناصر تأتي بالخصوص من كونها كانت تضم عددا من الموريسكيين، اذ أن وجودهم ضمن قواته جعل المنصور يتخوف منها إلى حد كبير، نظرا للجالية الموريسكية الكبيرة التي تضمها قوات الخليفة، ونظرا للتجارب السابقة التي كانت له معها. وهذا من بين العناصر التي تفسر الصعوبة التي وجدها المنصور في القضاء على الثورة، لكنه تمكن في الأخير من التغلب عليها وأرسل إلى ولاته والى علماء الشرق العربي يخبرهم فيها بهذا الانتصار المحقق، وبأن عمل الإسبان هذا لن يؤثر مستقبلا على مشاريعه الأندلسية :(... إن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله، وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دين الحق على الدين كله، ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس، وتجديد رسوم الأيمان بها، وإحياء إطلاله الدرس حتى لسان الاذان في أرضها بكلمة الله ...)[36]

---

34 - المصدر السابق، 170، رسائل سعدية، 53-54.

35 - Georges Pianel, le Maroc à la recherche d'une conquète : l'Espagne ou les Indes, in Hespéris, 1953, t x l, 34 + 2PP. 512-513

عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 195.

ملاحظة : نشر عبد الكريم كريم بعض الرسائل المتعلقة بثورة الناصر في ملحق كتابه السالف الذكر.

36 - مناهل الصفا، ص 191.

وكان المنصور يرمي من وراء توجيه تلك الرسائل إلى علماء الشرق بأنه مؤهل أكثر من غيره لتقديم المساعدة للموريسكيين، خاصة أن الأتراك، في عهد محمد الثالث، كانوا يعانون الكثير، من جراء حروبهم بأروبا الشرقية، ومن جراء الثورات والفتن التي كانت تعيشها الامبراطورية.

وبالفعل فقد انطلق المنصور في محاولته لعقد حلف عسكري يضم المغرب وبريطانيا وفرنسا وهولندا، إذ أن المعسكر البروتستانتي كان مصمما على توجيه الضربة القاضية للإسبان، متخذا من مدينة قادس قاعدة انطلاق نحو قلب اسبانيا[37]. وطلبت إليزابيت من المنصور أن يقوم بتخريب المناطق الزراعية حول مراكز الاحتلال الاسباني بالمغرب، وان يفرض عليها حصارا اقتصاديا شديدا[38]. ويعد هذا العمل خطوة أولى للهجوم على اسبانيا نفسها، أي ضرب المراكز الأمامية منها قبل التعميق في داخلها. وفي مارس من سنة 1600 أرسل المنصور وفدا إلى لندن لمدة 6 أشهر، إذ لم يغادرها إلا في مطلع يناير 1601، وتتلخص مقترحات الوفد المغربي في :[39]

- عقد حلف عسكري بين المغرب وانجلترا، وذلك للهجوم على الاسبان في المراكز المحتلة بالمغرب، ثم نقل الحرب بعد ذلك إلى اسبانيا نفسها، وكذا الهجوم على المستعمرات الاسبانية في غربي إفريقيا، وجزيرة Arguin، وجزر الهند الشرقية[40].

- نقل وفد مغربي الى حلب على متن سفن انجليزية. وكان قصد المنصور من ذلك الاستفادة من الظروف السيئة التي كانت تعيشها الامبراطورية العثمانية.

غير أن إليزابيت رفضت نقل الوفد المغربي إلى حلب نظرا لعلاقاتها مع الاتراك[41]. ولم توافق على مهاجمة اسبانيا ولا القواعد المحتلة بالمغرب، لكنها اقترحت على المنصور

---

37 - *مناهل الصفا، ص 91*

38 - S.I.H.M. .121.1ére série .Angleterre,2 :

39 - S.I.H.M. 197.1ére série, Angleterre,2 :

40 - *محمد بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي، مجلة تطوان، العدد الثامن، 1963، ص 43، 48.*

41 - *F. Braudel, la mediterrannée ...., 467*

امدادها بقرض قيمة 100 ألف جنيه، لتهييء حملة عسكرية ضد الهند، إحدى المستعمرات الاسبانية، لأهميتها الاقتصادية[42] غير أن المنصور ربط تقديم قروض بمشاركة القوات المغربية في غزو المستعمرات الاسبانية وبالتالي اقتسام الأراضي المفتوحة بينهما[43].

وقد اجابت إليزابيت بانها تحبذ توجيه بعض افراد الجالية الاندلسية بالمغرب إلى انجلترا، للمشاركة في حروبها ضد الاسبان[44] . مما يدل بالفعل على ان الاتصال كان قائما بين الانجليز والجالية الاندلسية بالمغرب، خاصة أن السفير الخاص الذي حمل من تلقائكم من المقاصد والأغراض التي القيتموها إليه وقصصتموها عليه تقريرا أصغنا فيها بالآذان الواعية حتى فهمنا جملة وتفصيلا ووعيا كل ما قررتم له تقريرا أصيلا[45] . والواقع أن المنصور كان يخشى أي احتكاك مباشر بين الجالية الأندلسية بالمغرب والانجليز، إذ من الممكن أن يستخدمها الاسبان بعد ذلك، فلم يكن بد إذا من إبعادهم عن مواقع القيادة والمسؤولية. وفي المقابل، أعلن المنصور عن استعداده للجهاد، وبأن المغاربة كلهم رهن إشارته: (... ولو رفعنا النداء بالجهاد لنهض المغرب بحذافره، سهوله وجباله، عربه وبربره، بجموع تملأ الأرض وتغطي سوادها الأعظم الشمس...)[46] وشريطة أن يكون للمغاربة نصيب في ذلك: (... إذا تيسر ذلك وعلم المسلمون أن البلاد إذا فتحت تبقى لهم فإن هذا الأمر بحول الله وقوته أهون شيء علينا وعليهم، بخلاف ما إذا كانت البلاد ستفتح ولا تبقى لهم، فإن فقهاءنا وعلماءنا لا يساعدونه على ركوب الأخطار بالمسلمين، ولا اقتحام الأموال العظيمة لهم، إلا إذا كانت البلاد يسلم إليهم أمرها، ويلقى إليهم حكم ولايتها. فالنهوض بغير هذا الشرط لا يجوز عندهم في الدين...)[47]

---

42 - *محمد بن تاويت، المصدر السابق، ص 45*

43 - *رسائل سعدية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ك 278، ص 195.*

44 - *نفس المصدر والصفحة.*

45 - *نفس المصدر والصفحة.*

46 - *نفس المصدر والصفحة.*

47 - *نفس المصدر والصفحة.*

مشاركة الأندلسيين في عملية السودان:

لم تكن الجالية الأندلسية بعيدة عن عملية السودان، فقد صرح المنصور في المجلس الاستشاري الذي عقده لهذا الغرض، إن الهدف هو : "الاستكثار من الأسطول لغزو عدو الدين، والاجلاب عليه بحول الله وعزته في عقر داره..."[48]، وأكد في نفس المجلس أنه سوف يعتمد على عساكر الأندلس لأنها "عساكر قاذفة بشواط الناس"[49]. وفي رسالة بعث بها إلى اسكيا الحاج محمد أمير كاغو يقول حول الهدف من فرض خراج معين على ملح تغازي :" وقصدنا بما يحصل من ذلك صرفه إن شاء الله في سبيل الغزو والجهاد... ومنازلته (العدو) على الدوام في عقر داره..."[50]

وفعلا فقد شاركت الجالية الأندلسية بالمغرب بنصيب كبير في عملية فتح السودان، بل إن قيادة الجيش نفسه استندت إلى قائد جيش الأندلس جؤدر باشا[51]، بالإضافة إلى عدد من القادة الأندلسيين، نذكر من بينهم : محمد بن زرقون، وأحمد الحروسي الأندلسي، وقاسم وردوي الأندلسي.[52]

وقدر المؤرخ الاسباني المجهول عدد الرماة الأندلسيين بألف من مهاجري غرناطة[53]. وظل عدد من أفراد الجالية الأندلسية يتوافدون على السودان، إذ ذهب مثلا مع القائد عمار باشا حوالي خمسمائة من الأندلسيين[54]. وقد شارك في الحملة أيضا عدد من الاسبان الذين دخلوا إلى الإسلام حديثا، وكان المنصور يسهر بنفسه على إقناعهم

---

48 - عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 128

49 - نفس المصدر والصفحة.

50 - رسائل سعدية، ص 134

51 - من أصل اسباني، من Las Cuevas قرب غرناطة. وقد دخل الاسلام حديثا.
Relation de l'Anonyme Espagnol, in Hésperis , 4é trimestre 1923, P 468

52 - عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان السودان، ص 138.

53 - Relation de l'Anonyme Espagnol, in Hésperis , 4é trimestre 1923, P 468

54 - عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان ،ص 181

بالدخول في الإسلام ليستخدمهم من بعد. وقد ذكر هذه العملية، ـــ الشهاب الحجري في هذا الصدد : "وكان قد ذكر لي رجل من علماء النصارى في مدينة مراكش، وكان راهبا ثم أسلم، وسمي برمضان، ثم مشى إلى بلاد السودان ومات بها – والله أعلم – وقال لي : إن السلطان مولاي أحمد – رحمه الله تعالى – أمر بإحضاره بين يديه بعد أن علم أنه من علماء النصارى..."[55]، كما ذكر عبد الرحمان السعدي أن الكاهية با حسن فرير FERRER كان راهبا[56].

غير أن الحذر ظل هو الطابع المميز لعلاقة المنصور بهذه الجالية وإن ابتعدت عنه بالسودان[57]، إذ لم يكن المنصور يطمئن كثيرا إلى هؤلاء، خاصة أن رغبتهم في السيطرة ما زالت قائمة، وبعض تصرفات هذا الجيش الأندلسي وقادته لا تنسجم تماما مع الأهداف التي خطها المنصور، إذ يذكر عبد الرحمان السعدي في هذا الصدد : "... ثم إن السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور ابن عبد الرحمان إلى أرض السودان برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته..."[58]، مما جعل المنصور يستبدل الحاميات الأندلسية بحاميات مغربية غير مشكوك فيها[59]، وقد استمر الأمر كذلك إلى ما بعد وفاة المنصور، إذ يذكر نفس المؤرخ في هذا الصدد :"... ثم شرع القائد الحسن في تبديل نظام الجيش وبدل العلامات ورد سرية الفاسيين أصحاب اليمين وسرية المراكشيين أصحاب الشمال، ونزل العلوج والأندلسيين تحتهما، ورغم أن ذلك كان من عند السلطان مولاي بوفارس..."[60].

---

55 - انظر بقية المناظرة في كتابه ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 154

56 - Relation de l'Anonyme Espagnol, in Hésperis , 4é trimestre 1923, P 468

57 - ذهب محمد الغربي إلى أن المقصود من إرسال جيش الأندلس إلى السودان هو التخلص منه، لأنه كان مصدر قلق بالنسبة له.

58 - تاريخ السودان، ص 175

59 - محمد الغربي، المصدر السابق ص 332

60 - تاريخ السودان، 193

اهتمام المنصور بالأندلسيين :

رغم سياسة الحذر التي اتبعها المنصور تجاه جاليته الأندلسية فإنه مع ذلك كان يفتح لها باستمرار سبل السعة والارتزاق بل والارتقاء إلى مختلف المناصب الحساسة في الدولة، من جيش وإدارة إلى غير ذلك. فقد كانوا يحظون باهتمام بالغ داخل جيش المنصور: "والترتيب الذي جرى عليه العمل في عساكر النار بالحضرة أن يتقدم أولا جيش السوس، ثم يردفه جيش الشراقة.... ثم يردفهما العسكران العظيمان : عسكر الموالي المعلوجي ومن انضاف إليهم، وعسكر الأندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم..."[61]. ويدخل اهتمام المنصور بالأسطول في هذا المجال أيضا، إذ كانت الجالية الأندلسية تشارك المغاربة في عملياتهم الجهادية، وكانت هذه العمليات تخلف عددا من الأسرى لدى الاسبان، فكان لا يتوانى عن افتدائهم :"... ومن صدقاته (المنصور) أيضا إخراجه الكثير من الأسرى في كل وقت من أقطار بلاد الكفرة وجزيرة الأندلس وغيرها"[62]، بل تعدى الأمر ذلك إلى تقديم المساعدة للجالية الأندلسية بتونس[63]، إذ يذكر ابن القاضي – وقد اجتمع به في زاويته قرب جامع الزيتونة سنة 988 هـ - في هذا الصدد أنه :"استخلص أسيرا من أهل البيت، شريفا أيضا. فلما بلغ بلده قال هذا الشريف: والله لا يخلص إلا يذهب شريفي، يعني من سكة ساداتنا الشرفاء الذين عمدتهم مخدومنا أبو العباس المنصور، وكان عدد المال ينيف على ثلاثة آلاف أوقية..."[64].

---

61 - عبد العزيز الفشتالي، مناهل ص 203

62 - أحمد بن القاضي، المنتقى ص 1 : 346

63 - يقول المنتصر القفصي عن دور هذا الشيخ في حماية الاندلسيين بتونس: "ولما جاء الأندلس(كذا) إلى تونس ضاقت بهاالمحاجج والطرقات والأسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت وصاروا ياتون إلى الشيخ وإلى سماطة وجرى معهم الشيخ رضي الله عنه كالريح المرسلة في إطعام الطعام وكسوة العريان..."نور الأرماش في مناقب القشاش، ورقة 2ظ. وقد نشر هذا النص عبد المجيد التركي في مجلة حوليات الجامعة التونسية"، العدد الرابع، 1967، ص70.

64 - درة الحجال، 3 : 261

وكان الاسبان يدركون بالفعل خطورة أي اتصال بين الأندلسيين والمنصور لذلك فقد كانوا شديدي الحرص على ألا يدخل أو يخرج أي أحد من الاندلسيين إلا بإذن، إذ أورد الشهاب الحجري، وهو على أهبة الخروج من الأندلس إلى المغرب، في هذا الصدد: "اعلم -رحمك الله تعالى، أن البلاد التي على حاشية البحر من بلاد الأندلس، وايضا فيما لهم في البلاد المسلمين، إن النصارى فيها من الحرص والبحث في من يرد عليها من الغرباء شيئا كثيرا، كل ذلك لئلا يذهب أو يجوز عليهم إلى بلاد المسلمين، وهمني الأمر كثيرا في كيفية الخروج من بينهم ..."[65] لكن، ومع حرص الاسبان هذا، فقد كان يرد على المنصور جاليات أندلسية مهمة، وكان يحسن استقبالهم. فقد اورد الشهاب الحجري في هذا الصدد: "... وأذن (المنصور) لنا في الدخول الى حضرته، في يوم الديوان. ولما ابتدأت بالكلام الذي اخترت أن أقول بحضرته العلية، بصوت جهير، سكت جميع الناس الحاضرين (كذا) كأنها خطبة، ففرح بذلك كافة الاندلس القدماء، ورأينا العافية والرخا في تلك البلاد.."[66] كما أورد علي التمجروتي في رحلته أنه نزل بتطوان، عندما كان ذاهبا الى الشرق، عند أحد الاندلسيين الذي فتح لهم المنصور سبل السعة والارتزاق اذ يقول : "... وصاحب المنزل الذي نحن فيه وهو السيد أحمد بن محمد بن أحمد بن المفضل الاندلسي الغرناطي، وهو من أهل اليسار والسعة بها، وهو المتولي قبض السلطان لما يخرج من عند النصارى من سبتة وما يرحل اليها من التجارة والأسرى وغير ذلك ..."[67]

65 - *ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 22.*

66 - *المصدر السابق، ص 29*

67 - *النفحة المسكية.*

تجليات الرافد الأندلسي في الحضارة المغربية
معجم الموسيقى الأندلسية ـ نموذجا

ذ. عبد العزيز ابن عبد الجليل

شكل النظر في المعجم المصطلحي عموما، مدخلا رئيسا لدراسة العلوم والآداب، ومعرفة مدى اكتمالها، ودرجات نضجها. والمصطلح بمثابة الكائن الحي، تعتريه، بدءا من نشوئه وعبر محطات تطوره، صنوف من التحولات والتغيرات، فينضب آنا، ويغتني آنا آخر، جراء تفاعله مع الروافد التي تصب في مجراه، واحتكاكه بما تحمله من ألوان المعرفة وصنوف المؤثرات.

وما من ريب في أن الاهتمام بموضوع "معجم الموسيقى الأندلسية" مما ينبغي أن يدرج في نطاق المشاريع الرامية إلى تسجيل وتدوين المادة التراثية، التي طالما نادى بها دعاة إحياء التراث، ليس ـ فقط ـ بهدف حفظ المصطلحات وصونها من الاندثار، ولكن ـ أيضا ـ من أجل إعادة الطرافة إلى مفاهيمها الفنية، وبعثها على مستوى التداول والاستعمال.

وسيكون في وسع الباحث الناظر في المعجم الموسيقي الأندلسي، أن يخلص إلى النتيجة التالية، وهي أن المصطلحات التي يحفل بها، ترجع في مجملها إلى مصادر ثلاثة هي: المصدر المشرقي، والمصدر الأندلسي، والمصدر المغربي الإفريقي. واعتمادا على هذا التصنيف، يتبدى جليا أن هذا المعجم استمد مادته من روافد متباينة، طبعت التراث الموسيقي الأندلسي بملامح وسمات استطاعت، بالرغم من اختلاف مشاربها وتعدد طبائعها وتباين مفاهيمها، أن تتفاعل فيما بينها، وأن تنصهر في بوتقة واحدة، أفضت إلى إفراز

معجم موسيقي مبتكر، له مميزاته الخاصة، كما استطاعت أن تغالب الزمن وصروف الدهر، لتدرك عهدنا هذا في زحمة المعارف الموسيقية المستجدة، محتفظة بهويتها ومقوماتها.

وعندما نستنطق المصادر المكتوبة لمعرفة مسار نشوء المعجم الموسيقي الأندلسي وتطوره، نكاد لا نعثر - فيما يتصل بهذا الموضوع - إلا على النزر القليل.

بعض هذه المصادر يعود إلى ما قبل سقوط غرناطة في نهايات القرن العاشر للهجرة، وهي:

- "متعة الأسماع في علم السماع" لأبي العباس أحمد التيفاشي الصفاقسي، المتوفى عام 651هـ .
- "كتاب الإمتاع والانتفاع في مسألة سماع السماع" لمحمد بن الدراج السبتي المتوفى عام 693 هـ.
- "روضة التعريف بالحب الشريف" لابن الخطيب المتوفى عام 776هـ.
- "مقدمة كتاب العبر" لابن خلدون المتوفى عام 808 هـ.

أما باقي المصادر - وهي الأوفر عددا - فهي مما ألفه المغاربة بعد سقوط غرناطة، بدءا - حسبما هو متوفر بين أيدي المهتمين اليوم - ب "منظومة الطبوع" لعبد الواحد بن أحمد الونشريسي، المتوفى عام 955هـ، وانتهاء ب "كتاب السقا ومغاني الموسيقى" لعلامة الرباط إبراهيم التادلي، المتوفى عام 1311هـ على العهد الحسني.

ونبدأ بالأصل المشرقي، فنلاحظ أن النهل من معجم الموسيقى الأندلسية كان ديدن القوم، منذ أن حطت ركاب العرب الفاتحين رحالها بالديار الأندلسية. وهو ما انفك يتجدد، الكرة بعد الأخرى، كلما جد في الساحة حدث استلزم توافد عناصر مشرقية جديدة على هذه الديار. وقد رافق توافدَ هذه العناصر تسربُ جملة من المصطلحات المشرقية، التي استطاعت أن تجد موقعها في حقل الممارسة، وأن تشكل - في البدء - مرحلة ضرورية في تأسيس المعجم الموسيقي الأندلسي. كما استطاعت على مر العصور أن تسهم

في استكمال هذا المعجم إلى جانب المصطلحات التي أفرزتها البيئة الأندلسية الجديدة - بعدوتيها الشمالية والجنوبية - وذلك في ظل التمازج الحضاري الذي تم بين العناصر البشرية المتساكنة، قوطا، وعربا، وبربرا، وزنوجا. ولتأكيد هذه الحقيقة يكفي أن نقوم بإطلالة على معجم الموسيقى الأندلسية في واقعه الحالي، لندرك أنه من بين ما يقارب خمسمائة مصطلح، يبلغ عدد المصطلحات ذات الأصل المشرقي زهاء المائة، أي ربع قوام المعجم الأندلسي تقريبا.

على أن أغرب ما يثير انتباه الناظر في بعض المصادر الأندلسية المذكورة،وجود صنوف من المصطلحات التي لا تمت بصلة إلى واقع الموسيقى الأندلسية اليوم. وفي هذا السياق تندرج رسالة ساقها لسان الدين ابن الخطيب، في كتابه المذكور آنفا، في معرض حديثه عن "المناسبة بين الألحان الموسيقية وبين النفوس"[1]. ففيما تكشف هذه الرسالة عن أهميتها من حيث الوقوف على ما يناهز ثلاثين مصطلحا موسيقيا، تتصل غالبيتها بالأبعاد وأجناسها intervalles،فإنها تثير أكثر من تساؤل عن مدى مطابقة هذه المصطلحات لواقع مستعملات الموسيقى الأندلسية المغربية، وبالتالي عن جدواها في التعرف على البنيات والقوالب الفنية لتلك المستعملات.

وسوف يفضي استقراء هذه المصطلحات بالباحث إلى أنها تنتمي إلى المعجم المشرقي، وأنها هي ذاتها الواردة في كتابي "الأدوار"[2] و"الرسالة الشرفية"[3] للأُرموي البغدادي المتوفى عام 693هـ، وأن جلها وارد - أيضا - في كتاب "الموسيقى الكبير" للفارابي[4].

---

1 - *روضة التعريف بالحب الشريف. تحقيق د. محمد الكتاني - دار الثقافة - الدار البيضاء ج 1 ص من 378- 390.*

2 - *الأدوار. شرح وتحقيق الحاج هاشم الرجب. منش وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية1980*

3 - *الرسالة الشرفية في النسب التأليفية. شرح وتحقيق الحاج هاشم الرجب. منش وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية 1982.*

4 - *تحقيق غطاس عبد الملك خشبة . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة 1967.*

ومثلما لم تكن رسالة ابن الخطيب موفقة في ترجمة واقع المعجم الأندلسي في القرن الثامن الهجري، فكذلك جاءت منظومة أحد أعلام المغرب في القرن الحادي عشر، وهو العلامة عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي صاحب "الأقنوم في مبادئ العلوم"، بتبنيها للمصطلحات المشرقية في تفسيرها للظاهرة الإيقاعية[5]، أقول جاءت مجافية لواقع الموازين والأدوار الإيقاعية في الموسيقى الأندلسية المغربية، كما جاءت لتكون أقرب إلى صياغة نظمية لما شرحه الأرموي البغدادي المتوفى عام 682 هـ - نثرا - في "الرسالة الشرفية"، وذلك على الرغم من سعة معرفة الفاسي بقواعد الموسيقى الأندلسية، وإسهامه في إغناء ديوانها الغنائي، واضطلاعه ببسط الحديث في طبوعها الأصلية والفرعية في قسم من أقسام أرجوزته الطويلة التي عنوانها "المجموع في علم الموسيقى والطبوع"، والتي تشكل فصلا من فصول موسوعته "الأقنوم". ونكاد نجزم بأن الفاسي وقف على إحدى النسختين المودعتين بالخزانة الحسنية من "الرسالة الشرفية" للأرموي، وأنه استمد منها ما جاء في أرجوزته[6].

ونتصفح المخطوط رقم 144 المودع بخزانة الفقيه التطواني محمد داود، وهو الكتاب الذي حققه الأستاذ مالك بنونة بعناية أكاديمية المملكة المغربية، فنقف على جملة من المصطلحات ذات مفاهيم نغمية غير متداولة في أوساط ممارسي موسيقى "الآلة"، ولا وجود لها في كناش الحايك الذي تم الفراغ من وضعه عام 1214، ولا في غيره من المصادر المعنية بهذا الفن. ومن نماذج هذه المصطلحات: الراست، والانسفال، والتراكيب الفرعية والتأليفية، والمساوي نقطا، والمباين خطا، ومشاكلة الأدوار، والحضيض، والأوج، والنسبة الزيدانية، والدوكة، والقواعد الأوجية، والأوزات. وواضح أن بعض هذه النماذج من صميم المعجم المشرقي، وهي: الراست والأوج والدوكة والأوزات.

---

5 - المجموع في علم الموسيقى والطبوع - الخزانة الحسنية ضمن المجموع رقم 650

6 - الأولى تحت رقم 2122 نسخت بتاريخ 785هـ، والثانية تحت رقم 1972.

وننتقل إلى الأصل الأندلسي فنجد أنه الأقوى حضورا في المعجم. وقد أفرزته الممارسة العملية منذ أن أنشأ زرياب معهده الموسيقي بقرطبة، فظهر مصطلح "النوبة"، وتلته مصطلحات أخرى من قبيل "الميازين" فيما دل على أقسام النوبة، و"البُغْيَة" فيما يعني المقدمة الآلية الحرة الإيقاع، و"الصنعة" فيما دل على المقطوعة المغناة؛ وأحسب أن المصطلحين الأخيرين هما ما قصد إليه قاضي الأندلس وأحد أعلام المذهب المالكي بها، وهو عبد الملك بن حبيب السلمي، الذي توفى عام 238 هـ في تعريضه بزرياب لما رأى حظوته لدى الخليفة في قرطبة وفوزه بسنيّ هباته عندما قال[7]:

صلاح أمري والذي أبتغي   هيْن على الرحمن في قدرته

ألف من الصفر وأقلل بها   لعالم أوفى على "بغيته"

زرياب قد يأخذها قفلة   وصنعتي أفضل من "صنعته"

ومن قبيل ما استحدثه الأندلسيون أيضا مصطلح "التوشية" للتدليل على المعزوفة الآلية التي يمهد بها لغناء صنعات الميزان. ونستحضر في هذا الصدد بيتين لشاعر العصر المريني مالك بن المرحل السبتي (604 – 699 هـ). إذ يقول:

ضلَّ المحبون إلا شاعرا غَـزِلا   يطارح المدح بالتشبيب أوطارا

لا يشتكي الحب إلا في مدائحه   دعوى ليصغي أسماعا وأبصارا

كضارب العود وشّى فيه توشية   وبعد ذلك غنى فيه أشعارا

وقد انتقلت هذه المصطلحات ونظيراتها إلى المغرب، خلال فترات تعايشه مع العدوة الأندلسية، ثم في رفقة مهاجري غرناطة، أواخر القرن العاشرهـ / 15 م. وإلى هذا يشير التادلي في كتابه[8] فيقول: "إن كتب الأقدمين في الموسيقى عارية عن اصطلاحه وقانونه

---

7 - *القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك - منش وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - مطبعة فضالة - المحمدية 1970.*

8 - أغاني السقا. تحقيق عبد العزيز ابن عبد الجليل. منشورات أكاديمية المملكة المغربية 2011 ص177

اليوم بالمغرب لعام 1302 (تاريخ بداية تأليفه لكتاب السقا)، وقبله بكثير، بل حدث فيه اليوم اصطلاحات وأسماء لقواعد لا توجد في كتبهم، ولعلها حدثت زمان نفاق سوق الموسيقى بالأندلس، خصوصا غرناطة، فهي المعدودة للموسيقى وآلاته من بين بلاد الأندلس، ومنه وصلت لفاس ونحوها من بلاد المغرب الأقصى كتطوان والعدوتين، وعلى اصطلاح فاس، والعدوتين ألف الفقيه الحايك الفاسي كتابه في الموسيقى".

ونريد أن نقف عند ظاهرة حديثة طارئة على الموسيقى الأندلسية المغربية، تتمثل في استبدال تسمية "الآلة" بعبارة "الموسيقى الأندلسية"، وعلى الرغم من بريق هذه التسمية الذي يحرك في النفوس الحنين إلى الفردوس المفقود، فإن من بين المهتمين المغاربة من يرى أنها تدخل في سياق توجه إيديولوجي يحاول محو الهوية المغربية والعربية لهذه الموسيقى، ويرمي إلى إنكار الدور الحضاري الذي اضطلع به العرب والمغاربة في الجزيرة الإيبيرية في هذا المضمار، كما يرتبط بنعت الباحثين المستشرقين لمظاهر الحضارة العربية في الأندلس، وخاصة في مجال العمارة، بالفنون الإسبانية الموريسكية. ومن ثم إذا جرت تنحية مصطلح "الآلة" بالنسبة لتراث الأندلس الموسيقي في المغرب الأقصى، مثلما جرت تنحية مصطلح "الصنعة" بالنسبة لهذا التراث في الرباط ووجدة والجزائر، واستبدال هذا الأخير بمصطلح "الطرب الغرناطي".

ومهما يكن من أمر، فالذي يبدو هو أن التسمية الجديدة استهوت نفوس ممارسي هذا الفن وهواته، كما استطاعت أن تهيمن على البحوث التي ينجزها الدارسون المغاربة، وإنْ تكن أكثر هذه البحوث قد أصبحت تتجه نحو نعت هذه الموسيقى ب "الموسيقى الأندلسية المغربية"، وذلك إمعانا في إضفاء الهوية المغربية عليها وتأكيدا للدور الذي لعبه المغاربة طوال مراحل تشكلها، ثم بالأحرى في الحفاظ عليها من الاندثار بعد سقوط غرناطة.

وأنتقل إلى إشكالية أخرى تتعلق بظاهرة ضياع المصطلح الموسيقي في المعجم الأندلسي، فأشير إلى أن هذا المعجم، في واقعه الآني، يعكس فراغا مهولا في مجال

المصطلحات الدالة على كثير من المفاهيم الأساسية في المعرفة الموسيقية، وخاصة منها ما يدل على الأبعاد، وأنماط الأداء الصوتي، وأساليب العزف الآلي، والطبقات الصوتية، ودرجات السلم الموسيقي، وتحوير المقامات، وغير ذلك مما يتصل بأساليب التعبير.

وأمام هذا الواقع لا يسع الباحث إلا أن يتساءل عن الأسباب الكامنة وراء غياب هذه المصطلحات عن المعجم. فهل ضاعت بضياع المصادر التي ربما كانت تشير إليها؟ ومن ثم لم يتردد ابن الخطيب في المتح من كتب المشارقة حينما لم يسعفه المعجم المغربي الأندلسي بما يخدم أغراض رسالته في موضوع الأبعاد، مثلما لم يتردد عبد الرحمن الفاسي في الاقتباس من "الرسالة الشرفية" للأُرمَوي حينما لم يسعفه المعجم نفسه فيما يعينه على شرح الظاهرة الإيقاعية.

إن مثل هذه التساؤلات تتوارد علينا مرة أخرى وبحدة، عندما نلاحظ كيف انقطع العمل بالمصطلحات التي أوردها التيفاشي في كتابه المذكور آنفا من قبيل: النشيد، والصوت، والحركات المرقصات، والعمل، والاستهلال، والخسرواني، والمطلق، والهزة، والثقل، والمُحَسِّن، والمكملة، وجلها فيما كان يدل على أقسام النوبة، أو تلك التي استعرضها ابن خلدون في "المقدمة"، وهو بصدد تحديد عناصر اللغة الموسيقية من قبيل: التناسب البسيط، والتناسب الذي يحدث بالتركيب، والتقدير بالعدد، ثم وهو بصدد تحديد مقاييس الجمال في التعبير الموسيقي وربطها بتناسب الأصوات وطرق الأداء الصوتي والآلي من (همس، وجهر، ورخاوة، وشدة، وقلقلة، وضغط)، وهذه كلها مصطلحات تندرج فيما تسميه اليوم معاجم التعليم الموسيقي "محسنات الأداء nuances d'interprétation أو ما أسماه الفارابي قديما "الكمالات العشر في الصناعات العملية"، أو "التزييدات والتشبيعات"، أو ما أسماه ابن سينا "محاسن اللحن" أو "الزيادات الفاضلة".

ومهما قيل عن ظروف انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس، وما أعقبها من تلاشي عقود المعارف، وضياع مظانها، فإننا نستبعد أن تكون الحركة الفنية، وخاصة في الحواضر المغربية كفاس وتطوان، قد توقفت وأصبحت عاطلة. فلقد كانت الموسيقى يومئذ

في هذه المراكز على مستوى جيد من حيث الممارسة، وسوف تعرف - وشينا - ألوانا من التطور في مجال الإبداع كتأليف نوبة الاستهلال، وابتكار الأدراج والبراول، ثم في مجال الكتابة التي انطلقت، حسبما انتهى إليه البحث حتى اليوم، مع قاضي الوطاسيين عبد الواحد بن أحمد الونشريسي، المتوفى عام 955هـ، وبلغت درجة لا يستهان بها من الاكتمال في العهد الإسماعيلي، على يد الأديب الفنان المنظر محمد البوعصامي، أواسط القرن الثاني عشر هـ.

والواقع أن الممارسة العملية ما تزال حتى اليوم تشهد على غنى التنوع الذي يطبع أداء الصنعات، سواء في أقسامها المغنات أم المعزوفة، وخاصة إنشاد " التغاطي"، والترجيع الآلي للجوابات، فالمستمع يتأتى له أن يلاحظ كيف تعرض الجملة الموسيقية في مطلع الصنعة عارية من الزخرفة، ثم كيف تتعقد فقراتها وتتدحرج نقراتها متنقلة بين التثنية والتثليث وترعيد الأوتار، ومترنحة بين السرعة والبطء، وبين القوة والخفوت، وما إلى ذلك من أساليب الزخرفة التي تكسو الجملة اللحنية الواحدة، في تواردها المستمر، ألوانا من الرشاقة، وتضفي عليها ضروبا من الحيوية المتجددة. وتلك كلها أنماط وأساليب من التعبير الآلي والصوتي، نطمئن بالتأكيد إلى سماعها، غير أننا لا نملك، للأسف الكبير، المصطلحات المعجمية الدالة عليها. ومع ذلك فليس من المستبعد أن تكون بعض هذه المصطلحات راسبة في ذاكرة شيوخ الفن ممن مد الله في عمرهم، غير أنها لم تجد المحفز لتطفو إلى السطح وتعود إلى حقل التداول.

ومن أجل تدارك ما يمكن تداركه من هذه المصطلحات فقد أنجزت كتابا بعنوان "معجم مصطلحات الموسيقى الأندلسية"،عمدت في جمعها إلى مساءلة النصوص المكتوبة، واستدرار ذاكرة ثلة من شيوخ الفن، فانتهيت إلى لَمّ حوالي أربعمائة وأربعين مصطلحا مما يتداوله أرباب هذا الفن بالمغرب حتى اليوم[9].

---

9 - *منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب (1992).*

ولعل من المفارقات العجيبة في معجم الموسيقى الأندلسية، ما يلاحظه الباحث المتقصي من وفرة للمصطلحات الدالة على الطبوع بأنواعها الأصلية والفرعية، والميازين بأقسامها وحركاتها، حتى لقد تجاوز عدد ما ألم منها ب "الصنعة" ومكوناتها الثلاثين. في حين انقطع أو كاد، كما رأينا، حبل التعامل مع المصطلحات الدالة على أساليب الأداء بنوعيه الصوتي والآلي.

ونعود إلى ظاهرة ضياع المصطلحات لنسجل، مرة أخرى، أنها ما فتئت، حتى عهدنا هذا، تتكرر وتتجدد. ففي مخطوطة "الروضة الغنا في أصول الغنا"، وهي لمؤلف مجهول، نرجح أنه وضعها في مطلع القرن الثالث عشر هـ، قبيل وضع كناش الحايك بسنوات قليلة،مجموعة من المصطلحات أغفل الحايك نفسه ذكرها في مجموعه، بالرغم من معاصرته لصاحبها. ومن هذه المصطلحات:

- عراض، ويراد بها الصنعة البديل لغيرها في بحرها ولحنها.

- القد، وهو في الروضة الغنا بمثابة "القياس" في الملحون، ويعني أن تستعمل الصنعة الواحدة قدا وقياسا لعدة صنعات. ومثال ذلك اتخاذ موشحة "يا بهجة الخمر" قدا لموشحة "دار الرشا الوسنان" لابن بقي، وموشحة "ليل الهوى يقظان" وموشحة "لي في الهوى مذهب".

- طرق أو طروق. وقد وقفت على هاتين الكلمتين في ثلاثة مواقع من المخطوطة دون أن يتضح لي المراد فيها. ولم تسلم مصطلحات الحايك بدورها من موجة الضياع، فقد أصبح الممارسون منذ المؤتمر الأول للموسيقى العربية المنعقد بالقاهرة عام 1932 م، أكثر نزوعا وميلا إلى استخدام المصطلحات المشرقية الدالة على مواقع القوة والضعف في إحداث النقرات كالدمة، والتكة، والأزة، وانقطع العمل أو كاد بمرادفاتها المغربية: الندف، والدف، والزنج، والفاصلة.

وفي اعتقادنا أن التخلي عن مصطلحات الحايك يشكل شرخا جديدا في جسم الثقافة النظرية للموسيقى الأندلسية، وهو شرخ يُخشى أن تتسع رقعته مع انتشار النظرية

الموسيقية الشرقية من جهة، وهيمنة النظرية الغربية على برامج التعليم في مؤسساتنا الموسيقية من جهة أخرى. وليس أدل على هول هذا الإحساس من العجز الذي يلمسه الدارس وهو بصدد تحليل وتفسير التعريفات التي ترد في مقدمة كناش الحايك للميازين، فإن نصوصها تشكل اليوم معميات ورموزا زاد من اضطرابها، ولا ريب، ما أصابها من خلط وتحريف على يد النساخ، ولنا في تعريف ميزان "البسيط" ما يدل على هذا:

يقول إبراهيم التادلي نقلا عن إحدى نسخ الحايك على عهده: إن البسيط مبني على ست نقرات كأزمنة الأبيات من السبب الخفيف عند العروضيين، تظهر من الست نقرتان ندفا، وتظهر نقرتان زنجا، وتظهر نقرة ندفا، وتظهر أخرى فاصلة.

ويقول الحاج إدريس بنجلون، معتمدا على نسخة أخرى، البسيط مبني على ست نقرات أزمنة (ب)، وهو السبب الخفيف عند العروضيين، مبني على حرفين: متحرك، وساكن. مثاله: (تَنْ)، تظهر من الست نقرتان دفا، وتضمر نقرتان زنجا، وتظهر نقرة ندفا، وتضمر أخرى فاصلة.

ويقول العربي الوزاني نقلا عن نسخة ثالثة: البسيط مبني على ست نقرات من أزمنة "باء". وهو السبب الخفيف عند العروضيين. مبني على حرفين: متحرك وساكن. مثاله (تَنْ). تظهر من الست نقرات، وتظهر نقرتان دفا، وتظهر نقرتان صنجا، ونقرتان ندفا.

الأندلسيون في الأخماس وغمارة
إقليم شفشاون

ذ. محمد القاضي

منذ سنة 1992م، وهي السنة التي احتفلت بها إسبانيا بمناسبة مرور 500 سنة على سقوط غرناطة واكتشاف أمريكا، والكتابات عن الأندلسيين (الموريسكيين) في تزايد داخل إسبانيا وخصوصا بالمنطقة الأندلسية. بحيث أصبح الاهتمام بتاريخهم وحضارتهم ومأساتهم، يؤخذ بعين الاعتبار من طرف الباحثين والمؤرخين. فالزائر إلى المدن الأندلسية ومكتباتها سوف يلاحظ العديد من عناوين الكتب المتعلقة بالحقبة التاريخية الإسلامية في الأندلس، حضارة وثقافة وفكرا وأدبا وفلسفة وعلوما وزراعة، بل ومأساة. كما حظيت الدراسات الموريسكية بنصيب وافر، ويصعب استحضار أسمائها في هذه المناسبة. ونفس الشيء حدث في المغرب، وإن كان بشكل أقل، ولكن الدائرة تتسع شيئا فشيئا. واللافت للانتباه، هو أن جل الدراسات إن لم تكن كلها، ركزت على الأندلسيين والموريسكيين الذين نزلوا الحواضر (المدن) واستوطنوها، ومنها هذه المدينة التي آوت العديد من الأسر الأندلسية التي ما زالت تعتز بأحفادها الذين يفتخرون بانتمائهم ويحملون اسم أجدادهم العائلي. وقد تناولنا هذا في دراسة لنا نشرت في مجلة التاريخ العربي/ عدد 58.

ولكن ما لم يحظ بعناية الباحثين المهتمين، حسب اعتقادي، هو استقرار هؤلاء في البوادي الشمالية، وخصوصا قبائل الأخماس وغمارة الممتدة من ضواحي شفشاون (غاروزيم إلى قبيلة مثيوة) (7 قبائل في الأخماس و9 في غمارة)، الممتدة على سلسلة جبال الريف،

وخصوصا الواجهة البحرية من غمارة. ولست أول من يطرح هذا الموضوع، فقد سبقت الإشارة إليه من طرف الدكتورة آمنة اللوه، في ندوة عن الموريسكيين بهذه المدينة، حيث ذكرت أن جالية (ساكنة) أندلسية استقرت في منطقة أجدير بإقليم الحسيمة، ويطلق على مدشرهم اسم أندلوسين، كما نبه الدكتور حسن الفكيكي هو الآخر إلى أنه يجب الاهتمام بالأندلسيين الذين استقروا بالمناطق الشمالية الجبلية، كما تجدر الإشارة كذلك إلى مجهودات المؤرخ المرحوم محمد بن عزوز حكيم في هذا المجال.

وكانت هجرتهم إلى هذه القبائل في فترات متعددة نظرا لقربها من العدوة الأندلسية، قبل سقوط غرناطة وحتى إصدار القرار النهائي بطرد جميع المسلمين سنة 1609م في عهد الملك فيليب الثالث. إذ كانت هناك هجرات متبادلة بين هذه القبائل والأندلس قبل سقوط غرناطة، علما بأن أسر غمارية وخمسية كانت قد هاجرت إلى مناطق أندلسية خلال فترة الاستقرار السياسي في العدوتين. ويرى الدكتور محمد بن شريفة بأنه "ما زلنا في المغرب إلى يومنا هذا نلحظ مظاهر ذلك التواصل الذي كان بين المغرب والأندلس رغم مرور قرون على نهاية الأندلس. وما تزال آثار مادية ومعنوية مغربية في إسبانيا اليوم شاهدة على الوجود المغربي الذي كان هناك. وما يزال كذلك تراث الأندلس محفوظا ومستمرا في المغرب تمثله الأسر الأندلسية الأصل في عدد من الحواضر والقرى.." (التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب) مطبوعات الأكاديمية المغربية.

وكانت مراسي الجبهة، وتجساس، وتارغة، وقاع أسراس، ووادي لاو، إضافة إلى مرسى بقيوة بالريف، تستقبل وفود المهاجرين الأندلسيين، ثم يتفرقون على القرى والمداشر القريبة منها: كمتيوة، وبني رزين، وبني سميح، وبني كرير، وتاغصة، وبني زريان، وبني منصور، وبني خالد، وبني سلمان، وبني رجل، وبني صالح، والشرافات، والخزانة، وبني شكورة، وبني أمحمد، وبني أحمد، وتنغاية، والقلعة وغيرها من القرى والمداشر، فهي قبائل وشعوب أكثر من أن تحصى كما يقول ابن خلدون. وتتميز بالتفاوت الحضاري،

وخصوصا تلك المطلة على البحر الأبيض المتوسط والتي كانت أكثر استقطابا للمهاجرين الأندلسيين.

ويرى عبد الله عنان، في كتابه نهاية الأندلس (ص294): "أن من بقي من المسلمين في لوشة، وقرية الفخار، وبعض أهل غرناطة، ومرناشة، وأهل البشرة عبروا إلى أراضي قبيلة غمارة". ألم يكن هؤلاء من أحفاد من هاجر أجدادهم سابقا إلى إسبانيا؟ قد يكون ذلك، لاسيما أنهم استقبلوا من لدن سكانها بحفاوة وعطف.

ولشدة اتصالهم بالأندلس كانوا في أحكام بعض الفروع على مذهب أهل الأندلس، كما يذكر ذلك الشيخ أبو عبد الله محمد النالي الغماري (نوازل العلمي 45/2) حيث إذا حلت بالأندلس كارثة السقوط في يد الإسبان هاجر الكثير من الأندلسيين حتى ضاقت بهم بعض القبائل.

وكان شعورهم هو شعور المضطر إلى اللجوء عند أقربائه، وكثير منهم من كان يحلم بالعودة إلى بلده بعد تهدئة الأوضاع. وقد ترجموا وقائع وأحداثا سياسية واجتماعية، فما تزال تتردد على ألسنة البعض أغنية شعبية كتبت في زمن بعيد تحكي قصة طرد المسلمين من الأندلس ومعاناتهم مع النصارى في منطقة غمارة والأخماس تقول بعض كلماتها:

الأندلس يا حضّار

حين دخلوها الكفار

دمرها القمّار

وابتلت بالبارود

وفي شهر الصيام

يأتونا بالطعام

يبطل لنا الصيام

دائما أسيادي

فلله يا الإسلام

ما فيكم من يزعم

للقتال والزحام

لباب الجهاد

ولكن لما رأوا أن آمالهم قد تبددت، استقروا وصبروا وكافحوا إلى أن اندمجوا وانصهروا في المجتمع الجديد مع مرور الزمن، واحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم وأسماء عائلاتهم بل وحتى لهجتهم، وإن كان بعض السكان وجدوا في مجاورتهم مساسا بمصالحهم المباشرة، فاتخذوا مواقف معادية تجاههم، وخصوصا أن العنصر الجديد كان متفوقا حضاريا وعلميا واقتصاديا واجتماعيا وزراعيا وفنيا، مما جعله يملأ الفراغ الذي كان حاصلا في هذه القبائل. فمنهم من لجأ إلى النشاط التربوي (التدريس) والإفتاء، والنشاط الفكري، فبرز منهم أعلام كبار في الفقه والعلم والأدب والشعر... ومنهم من امتهن الفلاحة وتربية المواشي، والحرف اليدوية، وعملوا جميعا على تمدين وتحضير كثير من القرى الغمارية والخمسية، فإحساسهم بشخصيتهم المنفردة، وتفوقهم، سمح لهم بأن يحتفظوا بسلالتهم وطرق معيشتهم بدون شوائب إلى حد ما لفترة طويلة. وقد ظل هذا التميز واضحا لدرجة يمكن التفريق بين الأندلسي والأصيل من الناحية الشكلية. وذكر موليرس في كتابه: المغرب المجهول / الجزء الثاني/ ص215 "ويعتبر أهالي قبيلة بني رزين أنفسهم، حفدة الموريسكيين الأندلسيين. وما يؤكد هذا الادعاء هو سلوكهم المتراخي والأكثر ميولا إلى السلوكات المدينية". لأنه كان هناك قبائل ذات طابع مغربي أندلسي منذ ما قبل سقوط غرناطة، إذ أن أصولها لم تكن بعيدة عن الأجيال الأندلسية المهاجرة كما هو الشأن بالنسبة لبني رزين. وذكر الفقيه الغماري الأندلسي محمد بن العباس بن عبد الله برهون، المتوفى بقرية تاغصا سنة 1241هـ-1826م في مخطوطه "زبدة التقاييد الجبلية في أخبار الهجرة الأندلسية" الموجود في مكتبة المرحوم محمد بن عزوز حكيم، أنه وجد في القبائل الخمسة الموالية للبحر الأبيض المتوسط

143 أسرة أصلها من الأندلس وجلها تحمل أسماء عائلية إسبانية، وفي بحث ميداني قام به محمد بن عزوز حكيم سنة 1951م في القبائل الغمارية العشرة، وجد أن الأسر الميسورة، والتي لها مكانة مرموقة وكلمتها مسموعة في تلك القبائل، أصلها أندلسي وجل أسمائها العائلية إسبانية وعددها 385 عائلة. وبعض الأسر كانت قد رافقت أسرة الفقيه برهون، وذكرها في مخطوطه هي: أولاد مورسيا، وأولاد رضاندو، وأولاد قردنياش، وأولاد كيو. وقد نبغ منهم العديد من الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء.إضافة إلى أسر أخرى انتشرت في مناطق سكنية متعددة، في القبائل والمداشر الغمارية والخمسية، نذكر منها: أجوليان، الكوطيط، الشطبي، يرو، برو، الرايس، مارصو، الصوردو، المدور، النالي، فلون، الشطون، بردال، الريوس، ملوك، القسطلي، القشفاش، الشقوري، الأندلسي، أرماز، مرزوق، بن جمعة، جنينو، الدقون، الداموس، زريق، القصار، قشوشو، قريرو، القيطون، سريسار، عبدون، عذرون، الهليلي، دكون، أغزوال، أغزال، الغدير، الغروش، حيون، ماريو، باطيس، الثغري، الحضري. وقد كون المنظري، مؤسس مدينة تطوان، من قبائلها جيشا كان مركزه (الخزانة)، محصنا بجبالها. كما أن الكثير من الأسر الأندلسية غيرت لقبها بعد الأحداث التي قام بها الأندلسيون في القرنين 16 و17م أو عن طريق المصاهرة بينها وبين أسماء أخرى أقل أو أكثر تشابها مع أسر أخرى. (عربية كانت أم بربرية) وشكل هؤلاء عنصرا ثالثا ضمن التركيبة السكانية.

وذكر المرحوم عمر الجيدي أن في غمارة أماكن أخذت اسمها من أسماء أندلسية، بحيث نعثر في قبيلة بني زيات على قرطبة وشاطبة وإشبيليا. (توجد هذه الأسماء في قبيلة بني زيات (قرطبة بمدشر بويعلي، وغرناطة بمدشر الروضة، شاطبة في بني بداس) وأزغار الأندلس تمييزا عن أزغار البقالين وبني شكورة. وكذا العكس، فكثير من الأماكن في الأندلس، وبعضها لا زال لحد الآن يحمل اسم غمارة مثل Puerta de gomara وBaniGoumara في ناحية إنكا نسبة إلى غمارة، وGomeriz وSoria Gomara وكان في مدينة غرناطة حي خاص يسمى بمرتفع غمارة (نهاية الأندلس – عنان ص247).

كما تتوج سماء غمارة والأخماس أضرحة كثير من العلماء والأولياء الذين يعتقد في صلاحهم وبركتهم (السيد القسطلي في تلمبوط) وسيدي بلقحة الأندلسي، وسيدي العطار، وسيدي محمد بن علي الغرناطي، وسيدي أحمد الغزال.

كان لهؤلاء الأندلسيين بهذه المناطق الجبلية (الأخماس وغمارة) الأثر البارز في ازدهار الحركة الزراعية، والصناعية، والتجارية، والعمرانية، والفنون، والعلوم، والآداب، والفقه، والفتوى. ومن المعروف أن اقتصاد هذه القبائل يعتمد على الفلاحة، لذلك مال المنحدرون إلى مزاولة الأنشطة الفلاحية، وشاركوا سكانها. فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء، وعلموا أهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها، ولا عهد لهم بها، فشرفت بلادهم، وصلحت أمورهم، وكثرت مستغلاتهم، وعمت الخيرات. كما يذكر المقري.[1]

لقد جددوا تقنيات الري، وأبدعوا فيها، ومدوا قنواتها، لتجميع المياه وتوزيعها طبقا لأعراف متفق عليها (الحصص-الزمن). وعرضوا القضايا الاختلافية في هذا المجال على الأعيان من الجماعة التي يترأسها الفقيه أو الأكبر سنا منهم، وذلك كل يوم خميس بعد صلاة العصر بالمسجد (تقليد لمحكمة المياه). ومن الذين اهتموا بأرجوزة ابن ليون في الفلاحة (إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة) في 1365 بيت، هو أبو عبد الله محمد بن علي الشطيبي أو الشاطبي الزروالي له "صنعة الفلاحة" وهو عبارة عن تلخيصات استخلصها من كتب الفلاحة، وأضاف إليها ما أفاده من خبرته الطويلة وتجاربه الخاصة. واعتمد أكثرها على كتاب ابن ليون السابق ذكره. (سعيد أعراب- مجلة دعوة الحق- عدد8، 1965م، ص85).

وحتى المصطلحات الفلاحية التي كانت متداولة وما زالت عندهم، هي مستقاة من الأرجوزة أو من كتب ابن بصال وابن العوام، وتنطبق تمام الانطباق على فلاحة أهل الأندلس.

---

1 - نفح الطيب، ج2، ص294. (تحقيق إحسان عباس).

كما اهتموا بغرس الأشجار المثمرة، وتلقيحها، وتدكير التين (الدكار) وطرق تحلية الكروم، وطرد الطفيليات من أشجار الكمثرى والزيتون، والاعتناء بغرس الأزهار والورود على أطراف العراصي والبساتين، وتقطير الورد والأزهار (الاعتناء بأشجار الفواكه كحب الملوك والأنجاص، والعنب والبرقوق بأنواعه المختلفة (البلنسي والبرتقيزي) والتفاح وأنواعه والتوت والسفرجل، والرمان (السفري) والتين وأنواعه والمشمش الذي كانت تتميز به القبائل الخمسية إلى أيامنا هذه. ومما كانت تتميز به هذه القبائل وما زالت هو الاهتمام بإنتاج زيت الزيتون والاحتفاظ به في المنازل طول السنة وأحيانا يتفاوتها، وزراعة الفلفل الأحمر بكثرة في منطقة ماكو (الأخماس) وتجفيفه ودقه بالمهراس، وكان يصدر إلى فاس وعرف وما زال يعرف (بالشاونية).

ويذكر المؤرخ محمد داود في كتابه (تاريخ تطوان)، أن السلطان عبد الرحمن بن هشام طلب من القائد محمد أشعاش أن يرسل إليه بعض الفلاحين العارفين باستعمال الخضر ومباشرة الغرس والأشجار، مولعين بذلك من قبيلة بني صالح أو الشاون من الأندلسيين الذين هاجروا من غرناطة ونواحيها... ووجه عشرة منهم لحضرة السلطان ليجعلهم بجنابه بمراكش نظرا لخبرتهم في هذا المجال وذلك سنة 1245هـ (تاريخ تطوان/ المجلد الثامن، ص187 و188).

كما أدخل الأندلسيون تقاليد غذائية جديدة من أصل أندلسي، وأهم ما كانت تحرص عليه الأم هو تلقين ابنتها فن الطهي، وعلى يدها تتحول المراعي والحقول والبساتين واللحم والدجاج والسمك والدقيق والسكر، والزيت والزعفران، والقرفة، والعسل والسمن واللوز، إلى موائد شهية جميلة تشتهيها الأنف ويستسيغها اللسان. وتختلف هذه الأطعمة باختلاف المناسبات، وهناك مأكولات شعبية ابتدعها المجتمع للتناسب مع الوضع الاجتماعي والاقتصادي لبعض الأسر (كالبيصرة) والدشيشة والاسفنج، والشعرية، والخبز. وقد أدخل الأندلسيون كذلك الزعفران واستعملوه في الأطعمة. وإعداد الخليع الذي برعت فيه الأسر الأندلسية الميسورة، واستعمال التوابل بكثرة.

ومن مظاهر التأثير التي بقيت راسخة في هذه القبائل وتوارثوها عن الأندلسيين، وتميزوا بها عن غيرهم، الألبسة الرجالية والنسائية التي أدخلوها معهم، وأثروا بها في غيرهم ممن انصهر معهم، والمتمثلة في السلهام والصدرية، والفراجية والفوقية والبدعية والقشابة (وتستعمل كثيرا في البادية وخصوصا في فصل الشتاء)، واللبدة الخاصة بالعلماء والأعيان، والطاقية أو الطبروش الملفوف بالعمامة والبلغة.

أما المرأة فكانت وما زالت تستعمل الحايك الملحفة كرداء يغطي الرأس والصدر، والسبنية والشربيل (حذاء مطرز بالحرير) والريحية ما زالت تستعمل بكثرة في هذه القبائل، والحزام (الكورزية) وهو من الصوف تلفه المرأة حول وسطها ويساعدها على حمل الحطب وكل ما هو ثقيل). وقد تكون من حرير، وتساعدهن على حمل الأطفال، وتستعملها حتى الفتاة البالغة حيث تتعود عليه من صغرها، وقد يصل ما بين 5 إلى 7 أمتار طولا، و0.45 إلى 0.50 مترا عرضا، وتطوى طولا، ثم يشد بها الخصر لتشكل دائرة، وتستخدم طياتها للحفاظ على المال أو الأوراق، وأشياء صغيرة.. الخ. وغالبا ما يكون لون الكرزية أحمرا. وقد استعملت في الأندلس والمغرب، وما زالت رمز المرأة البدوية التي تعمل في الحقول، وعند قدومها إلى الأسواق ببضاعتها المحمولة على ظهرها وفوق الكورزية.

والشاشية (غطاء الرأس) والمنديل المخطط بالأبيض والأحمر (غالبا) ويسمى (أتزار). هذا التلاقي يشكل رمز المرأة الجبلية بصفة عامة، والطوازين (الطرابق). (وهما قطعتان من الجلد مطروزتان ولهما خيوط جلدية تلف بهما المرأة البدوية العاملة رجليها من أسفل الركبتين إلى الكوعين حفاظا ووقاية لها من كل مكروه قد يصيبها في عملها أو في الطريق. وقد ارتبطت هذه الألبسة عموما بتقاليد وأعراف خاصة. وما يمكن ملاحظته في هذه القبائل هو الحرص على الأناقة في ألبستهم رجالا ونساء وخصوصا في المناسبات والمواسم، وحسب فصول السنة. واحتفظت المرأة بالحلي التي كانت سائدة في الأندلس

الدمالج- والخلاخل، والقلائد، والخميسة الفضية أو الذهبية والخواتم والأسورة الفضية أو الذهبية. وكان هناك يهود يفضلون الإقامة والاستقرار في قرى ومداشر القبائل الخمسية والغمارية، قدموا إليها من مدن أندلسية، ومارسوا مهنا كالحجامة والدلالة في الأسواق الأسبوعية وإصلاح النعال، والخياطة ونسيج العقل والقلنصوات وتعاطوا للتجارة، والصياغة، وصناعة الصابون، والقدور واللحامة، وطبخ الخبز والاسفنج، وسقاية الماء، وتقطير العسل والاتجار في شمعه، والبردعة ودبغ الجلود والاتجار فيها، ثم الاتجار في الفضة والذهب وصناعة الحلي، والنسيج والألبسة.

والبيت الجبلي في غمارة والأخماس يحتفظ بالكثير من ملامح البيت الأندلسي في ضواحي غرناطة من حيث البساطة والسعة (الدويرة، السطح، الروى، الكانون، النوالة). وحتى لهجة أهل المنطقة بما فيها شفشاون، فقد لاحظ شارل دوفوكو عندما زار المدينة مارا ببادیتها سنة 1883م أنهم يضيفون حرف (د) التي يجعلونها تسبق الأسماء في حالة الإضافة مثل واد (د.) النخلة، جبل (د) الأخماس، قنطرة (د) ربي. وله نفس المعنى لحرف الإضافة في اللغة الإسبانية (DE) والفرنسية. وإضافة حرف اللام قبل الفعل أنا لنراه، أنا لنقرا، أنا لنتغد، لنكتب، لنصلي. ويرى الدكتور محمد بن شريفة أن قسما كبيرا من الأمثال الأندلسية العامية الواردة في مجموعة الزجالي ما تزال مستعملة في حواضر المغرب وبواديه.

أسماء المداشر الغمارية التي يحتمل أن يكون لها ارتباط بالمهاجرين من الأندلس (ملامح خليط متناغم من الدم الأندلسي والعربي والأمازيغي):

❖ **قبيلة بني زجل:**

إمولة، أموراسن، القلعة، أزرهان، أمطراس، بني محمد.

❖ **قبيلة بني خالد:**

بني يبثة، القندية، بني أريان، أيلة، بورخة، بني شيا، جرمون، أطباش، موطي، ماشت، أولاسن، زازو، أغران.

❖ **قبيلة بني بوزرة:**

بوسكين، فالز، القلعة، الونثي، أيسوكة، أناري، إيزيون، النيش، إسندرين، بني حسون، بني زراولو، الدباغين، بني حمدون.

❖ **قبيلة بني زيات:**

بني بارون، إباطوني، بورد، اشقلالن، بني عيدون، القلعة، مركادو، زاوية بورمان، أطنبران، بنو جانفن، ويقول عنهم الحسن الوزان: بأنه كان على اتصال بهؤلاء الجبليين خلال فترة طويلة من حياتي، إذ كان لأبي أملاك بهذا الجبل، فإنه كان يعاني الشدائد لاستخلاص محصول أراضيه الزراعية وكرومه، لأن هؤلاء القوم يماطلون كثيرا في الآداء (الجزء الأول من وصف افريقيا، ص264). بني بخت.

❖ **قبيلة بني سليمان:**

بني مرزوق، البخاتة، القليعة، أونة، أزليمة، الواديين، إمدرنان، درمنات، تورات، بوهدون، الكان، انرجل، بني بارون، إشتة، أعبيدن، إنركل، إشطا، أمولا، أشريطن، أشوكران، بني بوزيكو.

❖ **قبيلة بني سميح:**

بني أنصار، أفغال، أونات، رمانة.

❖ **قبيلة بني كرير:**

دارنو، خنوبة، بولد، أحضار، أفريوت، أنسفول

❖ **قبيلة بني منصور:**

بني أنصار، السعوديين، بني شريبن، دارماكو، بني بشار، بني غفارة، إسوكه، إيطروهاش، أتليغا.

❖ قبيلة بني إرزين:

بني قاسم، بني موراق، أوفاس، أستوف العليا، والسفلى، بوينفع، بوخالد، أبو حاثن، عنقود، لوظة، أجيا، أساكي، بني مراق، واد أورنكا.

أما في الأخماس (هم بالعلم أغنى الناس) / محمد بن العربي البقالي/

❖ قبيلة بني صالح:

الغدير، يقول عنها موليراس بأنها كانت مدينة ومقرا للجامعة القديمة التي درس بها مؤسس شفشاون، وكان بها تسعة مساجد (ص103). وكذلك بني زيد التي كانت مدينة، وأكبر من الخزانة، بحيث كان عدد سكانها عندما زارها (الدريوش/ موليراس من 8 إلى 10 آلاف نسمة، يضاف إليها الشرافات وتنغايا. وكانت تشكل حزاما من بساتين الفواكه والخضر المتنوعة. وكان كل مسكن من الأخماس محاطا بأشجار البرتقال والجوز والزيتون. وكثرة الأرحى لتعصير الزيتون). الخزانة، بني جافن، بوحلة، برفدة، أريغلان، مشكرالة، أكراط، بني حمد الله، الغيطون، أولاد القطان، السلاويون، إمهراش، هشتالا، كرداد، منصورة، إسوراح، أكراط، بني عمار، بني يمون، بومنديل، الزيدانة، بياطة، الدشريين، دوار الزرقط، بني ولال، فدان الجبل، أمكدي، أيشكين، توارشت، أمكري، بني عاصم، بني كمانو، إهلالش، أمرابطش، بني بوهر، أبجريون، أولاد بن داود، أولاد بن علال، غجو، جينينو، الرويز، ررقيق، الشربي، بن سعيد، ابن الأحمر (المجموع 42).

<u>أعلام غمارة ذوي الجذور الأندلسية:</u>

1. أبو العباس أحمد بن علي بن شعيب المغربي الزياتي المالكي المقرئ الأندلسي، توفي سنة 1015هـ له كتاب (إتقان الصنعة في القراءات السبعة) حققه ذ. الحسن صدقي بدار الحديث الحسنية 1992م.

2. أحمد بن إبراهيم الجرير الأندلسي ثم الغماري (من عائلة أندلسية) انتقل بعض أفرادها إلى سلا (توفي سنة 1924م).

3. عبد الرحمن بن محمد بن يحيى الغماري من أهل الجزيرة الخضراء (الفقيه العالم) توفي سنة 603هـ.

4. عبد الفاضل بن عبد السلام بن أحمد المكي السوري الزياتي، أندلسي الأصل، قدم سلفه من الأندلس في حدود القرن العاشر الهجري، واستقرؤا في مدشرأزغار بني هليل، وكان مهدا للكثير من أهلها حتى اشتهر بأزغار الأندلس (بني زيات) لكثرة من نزل بها من الأسر الأندلسية، وتخرج منها كثير من العلماء والفقهاء.

5. محمد بن أحمد بن الفقيه الجريري الأندلسي الغماري العلامة الكبير والقاضي الشهير، أسند له القضاء في سلا ونواحيها في حدود سنة 1220هـ.

6. محمد بن علي السراج الهليلي الزياتي الغماري الفقيه الأديب، المؤرخ، (ينحدر من أسرة أندلسية عريقة، هاجرت أواسط القرن 9 هـ) توفي سنة 1984م (ترك إنتاجا علميا مهما).

7. محمد بن محمد الحاج أحمد بن عطية (عطية).. الغماري لقبا الأندلسي أصلا- كان حيا سنة 1139هـ وهو الذي نسخ كتاب (معين الحكام) لابن عبد الرفيع التونسي.

8. بنو جانف في قرية بني زيات (بني بخت) يقال إنهم من أصل أندلسي، منهم محمد بن المفضل بن جانف الزياتي.

9. محمد الغماري أبو عبد الله المالقي (صاحب الزاوية المخفية) توفي سنة 968هـ.

الأزجال الأندلسية
بين محمد بن شريفة وإميليو غارثيا غوميث
قراءة في الحصيلة والرؤى

الدكتور محمد العمارتي

تطمح هذه الدراسة إلى إقامة معرفة بعالِمين كبيرين في مجال الدراسات الأندلسية، الأول ينتصر للمدرسة العربية في إطار اشتغاله بالتراث الأندلسي (الأندلسيات)، والثاني يستند إلى مرجعيات غربية، تؤطرها رؤى وتصورات استعرابية إيبيرية. الأول هو العلامة الدكتور محمد بن شريفة عميد الدراسات الأندلسية، والثاني الدكتور إميليو غارثيا غوميث عميد الدراسات الاستعرابية وشيخها في العصر الحديث.

وتجسيدا لما قاما به من أدوار علمية كبرى ورائدة في خدمة التراث الأندلسي، في تجلياته المتعددة، وتمظهراته المتنوعة، ستنصرف هذه الورقة إلى إبراز حجم مساهماتهما العلمية الوازنة في مبحث علمي مخصوص ومحدد، ألا وهو مبحث الأزجال الأندلسية.

إذ بين العلامة الدكتور محمد بن شريفة والمستعرب الإسباني المحدث غارثيا غوميث علامات تقاطع وتماه كبيرة وبارزة، ونقط التقاء عديدة متنوعة، تقربهما أكثر مما تباعد بينهما، وتجمعهما أكثر مما تفرقهما. فكلاهما فارس في ميدانه، ربان في لجة محيطه، وكلاهما سافر إلى أرض الكنانة مصر، قصد تعميق دراسته في الآداب العربية ولغتها، ورسم خطوط مشروعه المستقبلي في مجال حضارة إسبانيا الإسلامية في العصر الوسيط. الأول اتصل بالمرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني، والثاني اتصل بعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وبشيخ العرب أحمد زكي باشا.

كما تجمعهما أواصر العلم والانتماء المعرفي والعلمي لقلعة الأندلس المنيعة، وتربط بينهما علاقات متينة وعميقة، تمتد في الزمان والمكان. يقول العلامة الأستاذ بن شريفة عن هذه العلاقة : "كان بين الأستاذ الكبير إميليو غارثيا غوميث وبيني صداقة دامت أربعين عاما، فقد عرفته في سنة 1962 عندما كان سفيرا في بيروت، وكنت حينئذ مبعوثا إلى مركز اليونسكو الإقليمي لتدريب كبار موظفي وزارات التعليم في العالم العربي الموجود مقره في بيروت، حيث قضيت سنة كاملة، ولما رجع إلى مدريد كنت أراه عند ورودي عليها، ثم جمعتنا دورتا أكاديمية المملكة المغربية منذ إنشائها سنة 1980، فكنا نلتقي في المغرب خلال دورتي الأكاديمية كل سنة، وفي مدريد كلما زرتها، وقد رشحني لعضوية الأكاديمية الملكية للتاريخ التي وافقت عليها في اجتماعها يوم 25 يونيو 1982. ولما توفي أهديت إلى روحه كتابي عن ابن لبال الشريشي الذي صدر بعد وفاته»[1].

وكلاهما أيضا اشتغل بالدراسات الأندلسية، فاهتما بمباحث أندلسية عديدة كالأمثال الفصيحة منها والعامية، والأدب والتاريخ والموشحات والأعلام الأندلسية وفن الأزجال. وكلاهما حقق عيون التراث الأندلسي، وأخرجها إلى الوجود، ومنحها قوة التداول العلمي والثقافي من جديد في عصرنا الحديث، بعد أن كانت حبيسة رفوف المكتبات الخاصة والعامة، داخل المغرب وبإسبانيا. وكلاهما يعد امتدادا لأستاذه، ووفيا لآرائه وأفكاره، يتعهدها بالعناية والاهتمام اللازمين، ويطورها في بحوثه ودراساته. فالعلامة محمد بن شريفة كان وفيا للدكتور عبد العزيز الأهواني في العناية بمجال الأدب الشعبي مثل دراساته لأمثال العامة والأزجال، على غرار أستاذه في عنايته الشديدة بمباحث أمثال العامة "و"الزجل في الأندلس". بينما غارثيا غوميث ظل وفيا لأستاذه خوليان ريبيرا إي طاراغو في اشتغاله بقضايا الأزجال الأندلسية كذلك، وما يتصل بها من إشكالات علمية ومعرفية شائكة وملتبسة، لاسيما أزجال ابن قزمان ولغتها ومفرداتها الرومانثية. فإلى

1. *تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب". محمدبن شريفة، الجزء الأول، ص:573. منشورات وزارة الثقافة سنة 2006.*

المستعرب خوليان ريبيرا يرجع الفضل في إثارة هذا الموضوع الشائك المعقد، حيث اعتمد غوميث في انطلاقة مشروعه لترجمة أزجال ابن قزمان إلى الإسبانية على أفكار أستاذه "خوليان ريبيرا"، فعن ريبيرا الوجه غير العادي، والشخصية الكبيرة، البلنسي الجذاب، أخذ غوميث الإحساس الإيقاعي الشعري الموسيقي، ومن هذا المنطلق كان معجبا بأستاذه الذي لا ينبغي أن ننسى مجادلته حول ديوان ابن قزمان *Cancionero de Aben Cuzmān*، وعرضه الجريء في الأكاديمية الملكية الإسبانية، حيث أضحى هذا العرض نقطة انطلاق لأعمال مهمة ودراسات عظيمة لتلميذه غوميث فيما بعد عن الموشح والزجل التي ضمنها كتابيه المشهورين "الخرجات الرومانثية في إطار موشحاتها العربية" *"Las Jarchas Romances de la serie árabe en su marco"*، وكل ما يتعلق بابن قزمان" *"Todo Ben Quzmān"*[2].

وكلاهما درس الأزجال الأندلسية، فالأول درسها في علاقتها بأمثال العامة، فألف في ذلك أطروحته لنيل درجة الدكتوراه حول أمثال العامة في الأندلس، بينما الثاني تناولها في ارتباطها بالموشحات والخرجة واللغة الرومانثية التي كتبت بها.

وكلاهما اهتم بالأمثال الأندلسية الفصيحة منها والعامية، تجلى هذا الاهتمام عند محمد بن شريفة في دراسته وتحقيقه كتاب " أمثال العوام في الأندلس"، لأبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي، بينما بحث عنها غوميث في أعمال ابن عاصم، وابن ليون الألميري، وابن عبد ربه في عقده الفريد ...وهكذا.

إلا أن هناك علامات فارقة بينهما، ولكنها قليلة يسيرة وغير مؤثرة في توافقهما العلمي والمعرفي والمنهجي. فمثلا يمثل الدكتور محمد بن شريفة التصور العربي النزيه والمتبصر في مسألة دراسة هذه الفنون الأدبية الشعبية المستحدثة في الأندلس، وفق منظور علمي موضوعي، يرى في مسألة نشأتها وازدهارها بالأندلس ثمرة تفاعل بين العاميات الأندلسية،

2 - *Vallvé Bermejo, J. "Don Emilio García Gómez, conde de los Alixares" Cairo, 1998. P 335.*

ونتيجة حتمية لمستوى الانصهار الكبير بين الثقافتين والحضارتين واللغتين المتجاورتين: العربية واللاتينية. بينما يجسد غارثيا غوميث تلك التصورات والرؤى الاستعرابية التي ترى بأن منشأ هذه الفنون، ظهورها وتطورها، إنما يعود إلى أصول وعوامل ذات خصوصيات إسبانية مسيحية وإيبيرية.

نؤسس، في ضوء ما سبقت الإشارة إليه، أنه ليس الغرض من عقد هذه المقارنة بين الرجلين هو بيان نقط الاختلاف والائتلاف بينهما، وإنما القصد من ورائها هو الاقتراب أكثر من عوالمهما الغنية المتنوعة في انفتاحهما على تجليات التراث الأندلسي، وتناولهما لمباحثه المتعددة. وسنحاول الاقتراب أكثر من أعمالهما التي تناولت الأزجال الأندلسية فقط، أفقا للبحث والدراسة والتأمل، ومجالا للكشف والتدبر، دون الإشارة إلى موضوع الأزجال المغربية، لأن ذلك سيكون خروجا عما رسمناه سلفا من حدود لموضوعنا الذي يتمثل فيما هو أندلسي فقط.

1. محمد بن شريفة ودراسة الأزجال الأندلسية:

الدكتور محمد بن شريفة أحد أعمدة الثقافة والأدب الأندلسيين ومنارتهما، فهو عميدها، وأحد المدافعين الكبار عن فنونها الشعبية المستحدثة بأرض الأندلس، دون منازع، وسمها بعلامات بارزة في مختلف إنجازاته وكتاباته ومؤلفاته الكثيرة.

والحقيقة أنه يصعب على الدارس تصنيف مشروعه العلمي ضمن مجال أو حقل معرفي معين. فهو يأبى على التصنيف لتنوعه وتشعب قضاياه التي تناولها بالدرس والبحث والتحليل، إذ يتوزع بين حقول ومباحث علمية عديدة ومتنوعة، بين التحقيق والإخراج، وبين الدراسات المنوغرافية لأعلام الثقافة والأدب الأندلسيين المغربيين، وبين مباحث في الفنون الأدبية الكلاسيكية منها والمستحدثة، كالأزجال وأمثال العامة، واللهجات الأندلسية.

إن الجهد العلمي الذي بذله العلامة الدكتور محمد بن شريفة في دراسته للأزجال الأندلسية جهد كبير، إذ يمكن اعتباره محاولة أولى مبكرة، في إطار اشتغاله بهذا المبحث

الأدبي الصعب في الآداب الأندلسية، لبلورة تصور علمي دقيق عن لون من ألوان الثقافة العامية بالأندلس، (الأمثال والأزجال) كما تعكسه مؤلفاته وأعماله. فهي تنم عن استقراء، وتمعن في حفريات هذا اللون الأدبي الجديد، الذي ظهر في الغرب الإسلامي (المغرب والأندلس). ولعل أوسع وأهم مؤلفاته التي تناولت هذين الفنين بالدراسة والتحليل الوازنين كتابه الضخم الذي يتألف من خمسة أجزاء بعنوان: "تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب"، منشورات وزارة الثقافة، سنة 2006.

فأهمية هذا الكتاب لا تكمن فقط في إفراده بالدراسة والتحليل لهذين الفنين بشكل مسهب ومفصل، وإنما أيضا في جمع كل ما يمت بصلة بالموضوع، وبملاحظات الباحثين المهتمين بهذين الفنين.بل إن الكتاب لا يقف عند حدود تجميع مادة موضوعه فحسب، بل إنه يورد ترجمات إسبانية وفرنسية لبعض نصوصها التي كانت مدار اشتغال ودراسة مستعربين أو مستشرقين غربيين. فقد مكنه اهتمامه الواسع ودرايته العميقة بقضايا هذين الفنين من رصد كل ما يتعلق بها، ليس فقط في الثقافة الأندلسية، وإنما أيضا في ثقافتنا المغربية التي أغفلها باحثون تناولوا نفس المحاور والمباحث المشتركة، بحكم الطابع الشمولي والعميق الذي تميز به هذا الكتاب الأكاديمي المتميز، والشامل لموضوعه.وتميز به صاحبه من غزارة الإنتاج وتنوعه، ووضوح أفكاره ومقاصده وغاياته. ولا مراء في أن البناء المنهجي لهذا المؤلف قد اتسم بصفة المعالجة الدقيقة لموضوعه، مع ملاءمة الأجوبة للإشكالات المطروحة واستخلاص النتائج.

وانطلاقا من وعيه أيضا بمبدأ عدم نقاء الجنس الأدبي، أووجود جنس أدبي خالص، فإنه عند دراسته ومقاربته للأزجال والأمثال لم يتناولها كمبحث علمي منفصل، أو مستقل، بل كان يعنى بمسألة التداخل بينهما، إذ لا يمكن في تصوره المنهجي دراسة الأزجال بمعزل عن الأمثال والعكس صحيح. إذ الجديد في منهجه ورؤيته هو المزج بين سائر أصناف الأدب التي أمكنه الوقف عليها وتطويرها، بغية الإلمام بتفاصيلها، وتقديم أوفى صورها، عبر استعراض أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها. كما أنه لا يقارب موضوعه إلا

انطلاقا من مجموعة من الخطوات المنهجية الدقيقة، التي تنبئ عن خبرة متمرسة بمجالات البحث الأكاديمي الرصين، ولا يقدم تصورا واحد مبتسرا وقاصرا، بل يقابل بين كثير من التصورات فيما بينها تقابل العالم العارف بحدود مادته، والخبير بأفق اشتغالها.

وغير خاف أن الدارس المدقق للمشروع العلمي للدكتور محمد بن شريفة، في دراسته للأزجال بشكل عام، سيلحظ أنه قدم مادة علمية غزيرة ونادرة عن الأزجال، لا تقف أهميتها عند تقديم المادة وتحقيقها فقط، بل إنه ساهم أيضا في تحديد سماتها البنائية والمضمونية والجمالية والوثائقية، انطلاقا من إبرازه تفاعل هذه المادة مع محيطها السياسي والثقافي والاجتماعي المتنوع. وهو عمل رائد ومجهود كبير.

إلا أن هناك ملاحظة جوهرية نريد الإدلاء بها في هذا السياق، وهي أنه من خلال متابعتنا لمستوى عنايته بالأزجال الأندلسية، سجلنا بأنها لا تشكل حيزا كبيرا من اهتماماته العلمية، إذا ما قيست بأختها المغربية. إلا أن هذه القلة لا تقدح في أهمية التناول الرائد لنماذجها الموجودة والمتاحة في مؤلفاته، أو في المستوى الرفيع والشامل الذي تمت به دراستها. فمن خلال المادة العلمية الموجودة عن هذه الأزجال الأندلسية، وضع العلامة الدكتور محمد بن شريفة مساهمة علمية هامة في سبيل بلورة تصور ناضج وشامل للقضايا التاريخية والتوثيقية والجمالية المتعلقة بهذه الأزجال.

كما ينبني تناوله لقضايا الأزجال الأندلسية على تصور نظري، ينطلق من اعتبار أن هناك علاقة جدلية تناغمية بينها وبين الأمثال الأندلسية. فدراسة الأمثال تستدعي بالضرورة العناية كذلك بالأزجال. ويستشهد بأمثلة من أزجال ابن قزمان، ومدغليس، وابن تاجيتا اللورقي وغيرهم. يقول محمد بن شريفة في نفس السياق « ...وإذا كان الشعر الأندلسي الفصيح قد اشتمل، كما رأيناه سابقا، على بعض أمثال العامة في الأندلس، فإنه من الطبيعي أن تكون الأزجال أكثر منه اشتمالا عليها، وأن يكون صدى الأمثال فيها أقوى رجعا، وأوضح ترديدا، وذلك لأن الزجالين يصدرون في أزجالهم عن اللغة العامية، ومنها يستخدمون ألفاظهم، ويستمدون معانيهم، ويستوحون أخيلتهم وينتزعون

تشبيهاتهم. كما أنهم كانوا أكثر احتكاكا بالعامة من شعراء الفصحى، وأقوى منهم انتباها إلى ما يدور على ألسنتهم. وقد وجدنا طائفة من الأمثال في أزجال ابن قزمان، ومدغليس، من زجالي القرن السادس، وعند ابن تاجيتا اللورقي، وأبي زيد الحداد البكازور، والصوفي أبي الحسن الششتري من زجالي القرن السابع. ولولا مجموع أمثال الزجالي لما استبانت هذه الأمثال في أزجالهم »[3].

لذا فمقاربته لمباحث الأزجال الأندلسية تتخذ طابعا حركيا يمتد في الزمان والمكان. فهي لا تقتصر على حقبة زمنية أندلسية واحدة، أو زجال واحد بعينه، وإنما شملت لوحات فنية متنوعة لكل من إمام الزجالين بالأندلس ابن قزمان، ومدغليس، والقيسي، وأبي عبد الله اللوشي، ولسان الدين بن الخطيب، والفقيه عمر المالقي. وهكذا عني بابن قزمان وبالتعريف بأصوله ونسبه، مع الحديث عن المناخ الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي عاش فيه، وساهم في بلورة معالم الإبداع لديه، وهو العصر المرابطي، مع ذكره لبعض الظواهر التيمية التي اتسمت بها أزجاله، كالتركيز على مظاهر الحياة العامة والبسيطة، التي يحياها عامة الشعب والناس. وقد ركز في معرض ذلك على زجل الزلاقة « فقد قاله ابن قزمان في ذكرى هذه المعركة التي وقعت قبل أن يولد، وجاء تذكره إياها في سياق مدح أمير المسلمين علي بن يوسف واستقباله ... ويشتمل هذا الزجل الذي هو أطول أزجال ابن قزمان على مدح علي بن يوسف بن تاشفين ومدح والده وذكر معركة الزلاقة ....»[4]

اهتم أيضا بزجال أندلسي آخر هو مدغليس. فقد أظهر العلامة عنايته بهذا الزجال الذي أتى تاريخيا بعد ابن قزمان، ويعتبر خليفة له. فوقف على دلالة أصله ولقبه وبعض أزجاله، ومدى معارضته لبعض أزجال ابن قزمان في الصياغة، وفي الأغراض إذ «أن موضوعات مدغليس كموضوعات ابن قزمان تشتمل على مدائح وغزليات وخمريات»[5]

---

3 - بن شريفة محمد، "تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب" منشورات وزارة الثقافة، الجزء الأول، ص : 179

4 - نفسه، الجزء الخامس، ص: 13- 14.

5 - نفسه، الجزء الخامس، ص: 30.

كما أظهر عنايته بأزجال القيسي، لاسيما زجله الذي نظمه في حصار مدينة ألمرية[6]، مبرزا أهميته في رصد حيثيات هذا الحصار وظروفه. «فهو يسجل فشل حملة عسكرية وإخفاق حصار بري وبحري، وذلك أنه في سنة 709هـ/ 1309م اجتمع فرناند الرابع ملك قشتالة وخايمي الثاني ملك أراغون، وقررا القيام بحملة مشتركة لمحاصرة الجزيرة الخضراء وطريف وجبل طارق وسبتة وألمرية، وكانت في الواقع حملة صليبية»[7].

بعد ذلك أورد زجلا للسان الدين بن الخطيب بعنوان : "افرحوا وطيبوا"، عرض فيه ملابسات نظمه التي كانت «بمناسبة رجوع السلطان محمد الخامس النصري، الملقب بالغني بالله، إلى ملكه، بعد ثلاث سنوات قضاها لاجئا إلى البلاط المريني، وعاشت غرناطة خلاله فترة مضطربة »[8].

بعد ذلك يختم هذا الجزء بالحديث عن أزجال الفقيه عمر المالقي، معتبرا إياه «أشهر زجال أندلسي في القرن التاسع الهجري ...المالقي ميلادا ومنشئا، الغرناطي سكنا، عرف به معاصره أبويحيى ابن عاصم في الربض الأريض »[9]

إن قراءة العلامة بن شريفة للأزجال الأندلسية، وما يحيط بها من إشكالات كبرى مرتبطة بخصوصيات هذا الفن، تتأسس على قناعات علمية ومعرفية، تبين أسلوبه المتميز في سبر أغوار هذه النصوص، وتتأسس على منطق الإلمام والدراية بكل ما يقرب دلالات النص الزجلي من القارئ، بمعرفة صاحبه وتاريخ نظمه ....إلخ. وهي تنسجم مع توجهه النظري العام، الذي يجعل من مفردات التراث الأندلسي وحدة متماسكة لا يمكن الفصل بين عناصرها. فالإخراج يقود إلى التحقيق، والتحقيق يقود إلى الدراسة. مع تقديم قراءات وازنة وموضوعية للأزجال، سعيا نحو كتابة تاريخ لهذه الفنون كتابة صحيحة.

---

6 - نفسه، الجزء الخامس، من ص: 43 إلى ص: 51.

7 - نفسه، الجزء الخامس ص: 45.

8 - نفسه، ص: 158 .

9 - نفسه، الجزء الخامس، ص: 167.

محمد بن شريفة واحد من أهم أساتذة اللغة العربية الذين حققوا التراث الأندلسي، وساهموا في بناء حوار الثقافتين المغربية والإسبانية.

لقد أظهر عمل بن شريفة اتسامه بخاصيتين غير منفصلتين في دراسة الأندلس وحضارته، الخاصية الأولى هي تحقيقه لأمثال العوام، وكانت البداية التي قادته إلى الانشغال بعدة مباحث علمية أخرى لاحقة، أهمها الأزجال. والخاصية الثانية هي انفتاحه على مختلف أشكال وأنواع الثقافة الأندلسية والمغربية، وهو إنجاز علمي كبير يتجاوز من خلاله الباحث مستويات الرؤى الضيقة ليقيم حوارا منفتحا وشاملا مع كافة تجليات التراث الأندلسي والمغربي.

2. غوميث والشعر الأندلسي المستحدث (الموشح والزجل)

لا أظن أن هناك مستعربا سيتجدد عنه الحديث، بشأن مسألة ترجمة الأزجال الأندلسية ومكوناتها في الثقافات العالمية، كما هو الحال بالنسبة إلى إميليو غارثيا غوميث. وليس منبع هذا الحديث من كونه قد طرق هذا الموضوع بعمق ودقة وإسهاب فقط، وإنما مصدر هذه العناية، يرجع بالأساس إلى كونه قد جسد بحق، صورة الباحث المتمكن في مجاله العلمي، والمترجم الصبور الذي كرس أزيد من أربعين سنة من حياته، في سبيل الكشف عن الإشكالات الكبرى الملتبسة، التي كان يطرحها موضوع هذا الفن الأندلسي، وما يكتنفه من تعقيدات وغموض، حول أصوله وامتداداته، وحول أمور نشأته وروافده وتأثيره، وما يتصل به من مكونات إيقاعية ولغوية (رومانثية) وتيمية...

ومن الواضح أن خبرته الطويلة في ترجمة الشعر، وتمرسه بأصول نقله إلى لغته الإسبانية، قد مكناه من إعادة الاعتبار والاهتمام لكثير من الأزجال، بعد عزوف الباحثين والدارسين عنها، وقلة العناية بها، نظرا لما تمثله من صعوبة في الترجمة.

وبذلك ظلت مسألة ترجمة هذا الفن في حياة غوميث، تشكل تحديا معرفيا مستمرا، ومسؤولية علمية كبيرة في نقل نصوص، بهذا الحجم الكبير من الصعوبات. فكان

غوميث يحاول معها أن يركب الصعب والمستحيل، ليكسب رهانات الموضوع، بكل ما أوتي من كفاءة ومقدرة وموهبة فنية وعلمية نادرة، ومن إصرار على هزم الغموض والعراقيل التي يخلقها هذا الموضوع.

ويمكن اعتبار هذا الاقتراب من عالمها بمثابة بداية انطلاقة رسمية واعية نحو إنتاج المعرفة والإلمام اللازمين بهذه الفنون الإبداعية (الأزجال والموشحات)، التي كانت تقع في المرتبة الثانية من سلم الثقافة الفنية الأندلسية الرسمية للدولة، والتي كانت تنتصر أولا لكل ما هو رسمي عربي فصيح، وتشجع عليه. ولهذا اتجه نظره إلى الاعتماد على مرجعيات خارج الثقافة الرسمية السائدة[10]، كديوان ابن قزمان مثلا.

ولعل اهتمام غوميث بهذه النماذج هو انتصار في حد ذاته للثقافة الشعبية، التي تمثل في تصوره نموذجا للإنسان الإسباني المسيحي، الذي كان يعيش في دوامة المجتمع الإسلامي الأندلسي، بكل تجلياته وتناقضاته وصوره المختلفة. أي أنها تمثل صورة الحياة في مجتمع إسبانيا العصر الوسيط، بمختلف طبقاته الاجتماعية البسيطة والمتواضعة، وصوت الشارع النابض بالحياة وحركاته، وما يعج به من واقعية عارية. و«هو أدب كان ينتج خارج المؤسسة الرسمية سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية... وهو بذلك يقع بعيدا عن الرعاية والاحتضان، بل ويجري العمل على نبذه واستبعاده من دائرة الضوء. وقد تسلط عليه الرقابة والمنع إذا ما بدا عليه أنه يتجاوز الخطوط الحمراء المنبه عليها. ولما كانت الأجناس الأدبية هي نفسها صنيعة المؤسسة الرسمية، فإنها تعتبر هذا الأدب كائنا منبوذا ومهمشا، لعدم انضباطه لتوجيهاتها، واختراقه لبنياتها الموجهة من طرف التقرير الأدبي

10 - سيقول قائل: *ولكن ابن قزمان مثلا كان معروفا ومشهورا بالأندلس، بل إن أزجاله وصلت حتى بلاد المشرق. نحن لا نخالف هذا الرأي ولا نشك في وجاهته، وفي سعة شهرة ابن قزمان، ولكننا نطرح القضية من وجهة نظر وضعيته الاعتبارية والفنية داخل المجتمع الرسمي الذي كان يرى أن هذه الثقافة لا تمثل النموذج والمثال ونقاء الجنس الفني العربي مثل الذي يوجد في الشعر التقليدي الفصيح المعتق، ولكن بالرغم من ذلك كانت هذه الثقافة العامية الشعبية الناشئة بإسبانيا الإسلامية تسعى مصرة إلى تأسيس حضورها في الحضارة الأندلسية في العصر الوسيط.*

المتعارف عليه... ولعل الميزة الأساسية لهذا النوع من الإنتاج الأدبي هو كونه يخترق المألوف في التفكير والتعبير، وينتهك الطابوات الأخلاقية والاجتماعية، ويتجاوز الحدود مع المقدس والمحظور، ويخترق الردهات المحرمة للمسكوت عنه[11]».

ثم إننا إذا ما وضعنا طبيعة اهتمامات غوميث بفن الزجل الأندلسي في سياقها التاريخي المبكر، فسيتضح لنا أن بداية احتكاكه به كانت مع انطلاقة صدور مجلة الأندلس، بدراسة نقدية له حول عمل نيكل Nykl عن ابن قزمان[12] سنة 1933. لكن هذا الاحتكاك كان وقتها احتكاكا أوليا استئناسا فقط، كما هو شأن أي باحث في مراحل مشروعه الأولي، الذي يريد أن يكتشف حدود مجاله العلمي.

ولتأسيس هذه الرؤية عنده تجاه الثقافة الشعرية المستحدثة بالأندلس، فقد اتجه إلى الاعتماد على مرجعية فنية مقصودة ومحددة ومضبوطة، وهي الأزجال. لاسيما منها أزجال ابن قزمان، استنادا إلى معطيات جديدة مهمة، تدعمها ما اكْتُشِفَ أخيرا من مخطوطات نادرة مثل ديوان ابن قزمان نفسه.

ويمكن اعتبار هذه الإبداعات المستحدثة بالأندلس نصوصا مضادة، خصوصا في وجهها الزجلي، حيث تقع في الضفة الأخرى المقابلة فنيا للنصوص العريقة الكلاسيكية الرسمية. لكنها لا ترقى إلى مستواها. وهي نصوص فنية تتجلى فيها كثير من الانزياحات المتنوعة: الاجتماعية والتنمية والفنية والإيقاعية واللغوية... وكأنها تؤسس لنفسها مكانا تحت شمس إسبانيا الإسلامية آنذاك، وتريد أن تمثل بحق وبواقعية ثقافة ولغة الحياة اليومية، والحيوية التي تعيشها قطاعات اجتماعية واسعة من المجتمع الأندلسي وقتها، وتخلق لنفسها صوتا مستقلا، مقابلا للثقافة الرسمية التي كانت تتربع عرش قلوب الحكام المسلمين،

---

11 - بجراوي حسن، "أدب محمد شكري: من الهامشية إلى المركزية"، الملحق الثقافي لجريدة العلم المغربية، السبت 14 يونيو 2003، ص: 3.

12 - García Gómez, E."IbnQuzmān editado por Nykl". Al-Andalus. Vol. I Fasc: II (1933) Págs.: 453-456.

وتستحوذ على عنايتهم وتشجيعهم. وهي بذلك تصنع لنفسها حضورها الشرعي في خضم صراع الثقافتين: الرسمية والهامشية، واستقلالها الذاتي النابع في اعتقاد غوميث- ومن معه من المستعربين المحدثين-في إسبانية رؤاها، وتصوراتها، وأدوات إبداعها، وطرائق تناولها للأشياء والموضوعات.

وغوميث نفسه باهتمامه بهذه الفنون المستحدثة في إسبانيا العصر الوسيط، إنما كان ينادي أو يؤسس لرؤية علمية، تستند إلى الدعوة للاهتمام بكل ما هو إسباني الموطن والمنشأ والمادة والموضوع.

هكذا إذا، توضح لنا المعطيات السابقة، أننا لسنا أمام باحث يترجم نصوصا شعرية، إرضاء لذوقه الفني والأدبي الخاص، وإنما نحن أمام مترجم عالِم بحدود ومجالات اشتغاله، يريد من وراء هذه الترجمات أن يعيد الاعتبار لنصوص شعرية كانت هامشية إلى حد ما، وغير معترف بها قديما في الدوائر الفنية الرسمية، وهوما يكشف لنا عن كثير من علامات الجهد العلمي عنده في سبيل تحقيق ذلك.

ولذلك يمكن القول إنها ترجمات تتواصل أكثر مع نصوص شعرية نبتت في واقع اتسم بتحولات شديدة التجدد والتغيير، مقارنة مع ما ألفه العرب الخلص، الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية، وقدسوا نمط القصيدة التقليدية، بعتاقتها، وجزالتها، وصرامة بنيتها الإيقاعية العروضية.

فإذا نحن قمنا بعملية إحصاء لمستويات اهتمام غوميث بالشعر الأندلسي عامة، فإننا سنجد بأن أغلبها يقع حول ترجمة هذا الفن، حيث يشكل في تصوره وجها من أوجه إبراز الشخصية الإسبانية القديمة في بعدها الإبداعي، وليس إبداعا بسيطا، بل هو إبداع مهم، هو إبداع للإيقاع الشعري الجديد. ووجه من أوجه فرض الذات الفنية الجديدة في دوامة الجدل الأدبي بين الثقافتين المضادتين، بين ثقافة رسمية قديمة، وثقافة أخرى تشق طريقها حديثا، وتتخذ صورا عديدة، وتبتكر لنفسها حضورا متميزا في الحياة اليومية، وتتواصل مع شريحة عريضة من الناس، وعلى نطاق واسع.

3. العناية بعالَم ابن قزمان طموح علمي واعد لدراسة الأزجال الأندلسية.

يبدو لنا من الوهلة الأولى أن غوميث قد اضطلع بمهمة شاقة وصعبة، عندما قرر أن يترجم أزجال ابن قزمان إلى الإسبانية. فهي ليست بمهمة سهلة يسيرة وهينة، نظرا لكونه قد اختار واحدا من أكبر شعراء إسبانيا الإسلامية صعوبة وتمنعا على المطاوعة والفهم والترجمة، وأكثرهم إثارة للجدل بشعره، وما يتصل به من إشكالات، تتعلق بالأصول والامتدادات، وباللغة التي نظم بها، والعروض والإيقاع وطريقة الصياغة. وصعوبته تكمن أساسا في كونه شعرا شعبيا عاميا، تمتزج فيه جميع اللهجات العامية الرومانثية Romance النابعة من الحياة والإنسان والمجتمع في إسبانيا العصر الوسيط «... وقد حاول كثير من المستشرقين في إسبانيا وسائر أوروبا منذئذ فهمه، ولكنهم لم يفهموه إلا فهما جزئيا، لأن لغة الشاعر تستلزم معرفة خاصة بالنحو ومفردات اللغة التي استعملها الشاعر. إلى أن كان عام 1933 فأخرج العالم التشيكي أ.ر. نيكل نتائج أبحاثه عن ابن قزمان، ونشر شعره ونقله بحروف لاتينية مع ترجمة جزئية بالإسبانية. ولقد أضر هذا النشر بالشاعر أكثر مما نفعه. ذلك أن ما نشره نيكل يحتوي على أغلاط كبيرة وكثيرة، ترددت بطبيعة الحال في ترجمته. لكن المستشرق[13] الفرنسي كولان، وهو المتخصص الوحيد في لغة ابن قزمان وفنه الشعري، انتقد هذا النشر انتقادا صارما مقبولا، وهيأ للنشر منذ بضع سنين جميع أزجال مخطوط "لِينِنْجْراذْ" منقولة إلى حروف لاتينية وفق قاعدة ثابتة، وقد سار على ضرورة الانتباه إلى حروف المد والعلة الفاصلة كما ظهرت في اللهجات العربية الأندلسية، وسار على ضرورة التوفيق بينها وبين نظام الزجل الشعري»[14].

13- أي المستعرب Arabista وليس المستشرق Orientalista كما ورد في هذه الترجمة، لأن العبارة جاءت في الأصل الفرنسي هكذا "L'arabisant français G.S.Colin"

انظر بروفنصال، "أدب الأندلس وتاريخها"، ترجمة إلى العربية شعير محمد عبد الهادي وراجعه العبادي عبد الحميد، الطبعة الأميرية، القاهرة 1951، القسم الفرنسي من الكتاب، ص: 31.

14 - المرجع السابق، القسم العربي منه، ص: 27.

كما أن غوميث نفسه لم يتردد في الاعتراف بأن عملا مثل هذا، عن عالَم ابن قزمان الإبداعي، لا يخفى على العارف بحدوده وخباياه ما يقتضيه من جهود كبرى[15] في سبيل الوصول إلى تكوين وبلورة معرفة قريبة من مملكة ابن قزمان الشعرية، والحصول على ترجمة تنقل أكبر قدر ممكن من عناصر الجدة والطرافة والابتكار في شعره، خاصة وفي شعر الأزجال الأندلسية عامة. خصوصا إذا علمنا بأن مصادر البحث في هذا المجال قليلة جدا. ثم إن هذا القليل لا يفي بالغرض والحاجة المطلوبين والضروريين.

فمعلوم أن ابن قزمان قد طرح الشعر العربي الكلاسيكي جانبا ونظم أشعاره بطريقة جديدة متطورة. واستخدم اللهجة الرومانثية استخداما جديدا وثوريا موفقا، تمكن من خلاله أن ينقل كل ما كان يجيش به نبض الشارع من أصوات وتيارات مختلفة ومتناقضة، وما تلهج به الحياة اليومية لساكنة الأندلس لاسيما في طبقاتها العامة البسيطة.

ولهذا كان غوميث يترجم نصوصا غير يسيرة أو سهلة مطواعة، بل كانت نصوصا صعبة خصوصا في شقيها الإيقاعي واللغوي. فركوب ابن قزمان فن الزجل بهذه الكثافة اللغوية الجديدة، والإيقاعات الصوتية الخفيفة الغريبة على الذوق العربي، الذي ألف واعتاد الأوزان الخليلية المجلجلة والصارمة، كان كل ذلك يزيد من عبء غوميث ومن صعوبة مهمته العلمية الملقاة على عاتقه.

وقد لا نغالي في قولنا إن مشكلة الأوزان واللهجة العامية، اللتين تنهض عليهما معظم أزجال ابن قزمان يتطلبان دراسات وافية لوحدهما. فهما من التعقيد بحيث يصعب تناولهما بنوع من البساطة وسرعة الاستنتاج. وتكمن صعوبة هذه الأزجال في أن الغالبية العظمى من أوزانها ذات إيقاع نبري بارز، لا عهد للتراث العروضي القديم به، وهو الذي يتأسس بشكل واضح على الإيقاع المقطعي. كما أننا نجد اللغة التي نظمت بها معقدة وشائكة يصعب على المترجم المبتدئ اقتحام عوالمها بسهولة ويسر.

---

15 - García Gómez. E. Todo Ben Quzmān. Madrid, (Prólogo)

وبالتالي فإن التعامل مع عالم ابن قزمان الزجلي نقلا ودراسة وترجمة وتحقيقا يتطلب الاعتماد على ثقافة واسعة وعلى إدراك دقيق للبنى الصوتية والإيقاعية، وعلى معرفة عميقة بخصائص اللهجة الرومانثية وأبعادها الدلالية، فهو مطلب غير يسير، وليس في متناول كل باحث. وهذه الخاصية بالذات هي التي أتاحت لغوميث، المترجم والمحقق والدارس، مساحة واسعة من الحركة داخل هذا الفضاء، حيث استطاع من خلالها إظهار مقدرته على الإبداع المجدد في ترجمة هذه الأزجال وتقريب دلالاتها وأبعادها ونماذجها المتنوعة والمتعددة.

وقد لا نكون مجازفين إذا اعتبرنا أن بداية ارتباطه بعالم ابن قزمان تعود إلى الثلاثينات من القرن الماضي، فقد تولد هذا الارتباط مع انطلاقة غوميث نحو ترجمة الشعر عامة، لكنه لم يتناول الموضوع[16] بنوع من العمق والاستمرارية والامتداد، فلم يصغ أسئلته عن ابن قزمان خارج هذا الإطار، لكنه ظل مشدودا إلى كل ما يرتبط بابن قزمان، مع التعبير في الوقت نفسه عن عمق وعيه بالإشكالات التي يطرحها الشعر العربي المستحدث بإسبانيا الإسلامية، في صوره وأبعاده ومظاهره المتنوعة المعقدة، حتى أضحى موضوع البحث في أزجال ابن قزمان «واحدا من الموضوعات الأكثر حبا وقربا إلى نفسية غوميث منذ أن نشر سنة 1933 مقالا رائعا عن ابن قزمان في مجلة زائد ناقص " Cruz y Raya" بعنوان: «ابن قزمان صوت في الشارع ». وتابع غوميث طرق هذا الموضوع بمقالات متفرقة إلى أن فاجأنا في سنة 1972 بكتابه الضخم القيم، "كل ما يتعلق بابن قزمان "*Todo Ben Quzmān*" في ثلاثة مجلدات كبيرة [17]»

والطريف العجيب في ترجمات غوميث التي تناولت عالم ابن قزمان الشعري، أنها لم تكن تتناوله كأفق مستقل منعزل، بل تعاملت معه في سياق الأفكار التي تنتمي مرجعيا إلى المنظومة الإسبانية الغربية.

---

16 - García Gómez, E. "Aben Guzmān, una voz en la callé (siglo XII)", Cruz y Raya. (1933)

17 - Vallvé Bermejo, J. "Don Emilio García Gómez, conde de los Alixares" Cairo, 1998. p: 340.

وكان المستعرب الإسباني المحدث خوليان ريبيراي طاراغو أول من لفت الانتباه إلى دراسة وترجمة هذين الفنين (الزجل والموشح)، وأشار إلى إمكانية التوصل بواسطتها إلى معرفة العناصر الأولى لنشأة وظهور الإيقاعات الإسبانية المبكرة وتطورها، ومن ثم معرفة أوجه التأثير التي خضعت لها الإيقاعات الأوروبية من جراء ذلك، أي عن طريق قانون التأثر والتأثير،حيث أذاع رأيه في ذلك «منذ سنة 1912. فقد لاحظ التوافق في أبنية المقاطع، وفي القافية المتكررة في أواخره، وقال إن التوافق الملحوظ بين الآثار المبتكرة من الشعر الشعبي العربي الأندلسي وبين أغاني التروبادور في أكيتانيا وبروفانس في العصر الوسيط لا يمكن أن يفسر على أنه محض صدفة...وانتقل ريبيرا من ذلك إلى دراسة المؤثرات المتبادلة بين شعر الملاحم الفرنسي، وشعر الملاحم القشتالي، وذهب إلى رأي جريء واضح: وهو أن النظام الشعري الغنائي الذي ابتدعه كفيف قبره والذي شهره بعد ابن قزمان بعبقريته، هو المفتاح السري الذي يفسر مقومات الأشكال الشعرية في النظم الشعرية الغنائية التي عرفها العالم الوسيط المتحضر»[18].

ولهذا فقد تأثر غوميث كثيرا بآراء أستاذه ريبيرا في تناوله لمثل هذه المواضيع، وكذا في الميولات والاهتمامات العلمية المشتركة في المباحث الأدبية واللغوية والإيقاعية. إنه استمرار رائع ومتين لمدرسة متينة في البحث الاستعرابي الحديث لعلماء نذروا حياتهم ووهبوا جهودهم العلمية لخدمة ثقافة إسبانيا الإسلامية في تجلياتها المتنوعة والغنية. فكانت ترجمات غوميث ودراساته لهذين الفنين (الزجل والموشح) استمرارا وتتمة لدراسة أستاذه الممهدة لذلك.

ولا شك أن أبرز ما يميز أعمال غوميث في هذا المجال عن بقية الدارسين والمترجمين كنيكل وكولان وبروفنصال، هو أنه استفاد منهم، وصحح بعض أفكارهم وآرائهم في الموضوع، وأضاف إليها أخرى جديدة، بحكم مواكبته الطويلة لمستجدات هذا المبحث ولإشكالاته التي يطرحها.

---

18 -بروفنصال، *"أدب الأندلس وتاريخها"* *ترجمة إلى العربية شعيرة محمد عبد الهادي، القاهرة 1951، ص: 45 - 46.*

4. "كل ما يتعلق بابن قزمان" ثمرة طيبة لمجهود علمي في مقاربة الشعر الزجلي بالأندلس.

كانت هذه الإنجازات منذ سنة 1961 بمثابة مقدمة لسلسلة أو لمشروع طويل وواع من الدراسات، وفيض هائل من الأعمال حول هذا الموضوع. وهكذا وابتداء من تلك السنة، سيشرع غوميث في الاهتمام الرسمي والجاد بالزجل، حيث سيتابع ترجماته في ضوء قناعته بعمق الإشكال الذي يطرحه الزجل الأندلسي عامة، وأزجال ابن قزمان بشكل خاص. ويمكن اعتبار كتابه "كل ما يتعلق بابن قزمان" بمثابة خلاصات لنتائج طيبة لأغلب إنجازاته وأعماله التي عالجت الموضوع من قريب أو من بعيد، فحاول بذلك إثبات كفاءته في ترجمة هذا النوع العسير من الشعر العامي، وكان هذا الكتاب أهم ما ختم به أبحاثه في مجال الحفريات حول الأزجال بصفة عامة، حيث وصل إلى الحلقات الأخيرة من تفكيره وتأملاته، وأفقه العلمي الذي غذاه بكل جديد، طيلة مسيرته العلمية حول فن الزجل.

واللافت للانتباه أن من يقرأ بتأن وبعمق هذه الأشعار القزمانية سيجد فيها كثافة دلالية، ليس مصدرها لغته الشعرية الحية فقط، بل الرؤيا العامة أيضا للحياة، ولواقع الإنسان الأندلسي البسيط، بكل تفاصيلها وصراعاتها. حيث نقل كل ذلك بذكاء ليس من شرفات القصور وغرفها، وإنما من ساحات المجتمع والشارع والحياة العامة. ولهذا أطلق غوميث على أول إنجاز علمي عن ابن قزمان عنوان: "ابن قزمان صوت من الشارع" "Aben Quzmān, una voz en la calle".

وخلافا للأدب الرسمي الذي كان يكتب بالعربية الفصحى كان الشعر الزجلي الشعبي في إسبانيا الإسلامية خصوصا عند ابن قزمان يستخدم لغة التخاطب اليومي، ويتناقل بالرواية الشفوية. كما كان إنشاد النص الشعري في الحياة العامة يكسبه بنية فضائية تنافس بعده الدلالي.

ولهذا يرى كثير من المستعربين المحدثين[19] أن إبداع الشاعر والمغني الأوروبيين في العصر الوسيط، كان امتدادا فنيا وشعريا وجماليا لما كان ينهض به ابن قزمان وغيره من الشعراء الزجالين الجوالين في إسبانيا الإسلامية آنذاك. فابن قزمان كان شاعرا منشدا ومتجولا، وغوميث نفسه يقول عن البنى الإيقاعية لأزجال ابن قزمان: «إن عَروض ابن قزمان موسيقاه، وموسيقاه عروضه[20]». فأزجاله تخاطب العقل والأذن معا،إذ كان يرتاد الأسواق والساحات والأماكن العمومية. وإذا كان الشعر الكلاسيكي الأندلسي يحترم قواعد اللغة الفصحى ولا يتمرد عليها، وفي احترامه لها طاعة للسائد الرسمي في الدولة، وفي المجتمع، وفي الثقافة، فإن الشعر العامي الزجلي كان شعر الثورة الفنية على ما هو سائد ورسمي. حيث تتحول عنده هذه الثورة إلى نوع من العزوف والانصراف التدريجي عن هياكلها اللغوية والصوتية والإيقاعية والاشتقاقية الرسمية، وخرق لنظامها بتوليد أنظمة لغوية ونحوية وصوتية بديلة، غير متداولة ومعروفة في الثقافة الرسمية.

وانطلاقا من هذه المعطيات يتضح أن غوميث لم يستطع أن يتخلص من تراث ابن قزمان، إذ كرست أزجاله حضورا بارزا في أعماله الكثيرة، وإليه في الحقيقة يعود الفضل في ترجمة الديوان كله، وفي إقامة الدراسة عليه. كما يرجع الفضل أيضا إلى أستاذه ريبيرا، إذ منذ أن اهتم بديوان ابن قزمان، في بداية القرن الماضي، لم تنقطع العناية بفن الزجل والبحث في مكوناته ومعطياته داخل إسبانيا وخارجها.

والجميل اللافت للانتباه، في ترجمات غوميث، أنها لا تتخذ صبغة ثابتة ونهائية، بل هي رغم دقتها وعمقها، في تحول وبحث مستمرين عن الجودة والكمال المنشودين. إذ كان يعيد في بعض الأحيان ترجمة بعض أشعار ابن قزمان، كان قد نقلها إلى الإسبانية سابقا، فيعيد ترجمتها مرة ثانية، ومن جديد « مِثْلَما حدث للزجل رقم 10 في ديوان ابن قزمان ص: 56 – 59 من المجلد الأول من طبعة غارثيا غوميث سنة 1972. وكان قد نشر ترجمة له من

---

19 - أمثال ريبيرا، وبروفنصال ومننذثبيدال وغيرهم.

20 - Gibert Soledad. "Sobre el (Todo Ben Quzmān) de García Gómez" Al-Andalus. Vol. XXXVII. Fasc: I. (1972). p : 234

قبل في مجلة "المعتمد، شعر ونثر" المغربية[21]»، يقول غوميث عن ذلك: «... ولنقدم نموذجا للزجل هو ما أسميه "زجل التصغيرات"، وهو من أشهر ما نظمه ابن قزمان، وليس من الأزجال المفرطة الطول، وقد قمت بترجمته شعرا، مع المحافظة على بنيته وإيقاعه الأصلي. وترجمته هنا تختلف عن ترجمة سابقة قمت بها من قبل[22]... فقد صححتها بفضل بعض المعلومات التي أفادني بها جورج كولان وليفي بروفنصال، وهناك ترجمة نثرية أوردتها في كتابي "خمسة شعراء مسلمين" في الفصل الخاص بابن قزمان[23]».

ولكن لماذا كان يسلك هذا المسلك؟ كان يسلكه لاعتبارات شتى أهمها:

▪عثوره على بعض المعطيات التي تضيء الموضوع، أو بفضل ظهور مستجدات تغني إنجازاته، وتزيدها وضوحا ودقة وعمقا، وكذا توصله بمعلومات زوده بها بعض زملائه من العلماء المشتغلين في نفس الميدان.

▪أنها كانت ترجمة نثرية غير شعرية، وكانت في بداية حياته العلمية المبكرة، قبل أن يمتلك خبرة وتراكما وتمرسا واحترافية في هذا المجال.

ويستطيع المتتبع لإنجازاته في هذا المجال أن يلاحظ، وبيسر، السمة البارزة فيها، وهي تلك النظرة التمجيدية للشعر القزماني، مما يدل على أن غوميث كان ميالا منذ البداية إلى هذا النوع الجديد من الشعر، مع إيلائه المزيد من الاهتمام والتتبع اللازمين. فغوميث استهوته واجتذبته منذ اللحظات الأولى من سنوات مشروعه العلمي المشاكل المتعددة المتولدة، أو الناجمة عن اختلاف القراءات لديوان ابن قزمان* وأزجاله، لغويا وإيقاعيا

---

21 - *García Gómez, E. "El zéjel X de Ibn Quzmān" Al-Motamid, 12. Larache. 1948*.

22 - *انظرمكي محمود علي، **"ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي"**، ص: 77.*

23 - *نفسه، ص: 98 (الهامش).*

* - *لا ننس ونحن نتحدث عن ابن قزمان وديوانه أن نوضح طبيعة السجال العلمي الذي دار بين، إميليوغارثيا غوميث والباحث المصري الدكتور عبد العزيز الأهواني حول بعض القضايا العالقة التي عنت لكل واحد ==*

وتيميا... فأحس بانجذاب كبير نحو هذا الموضوع الطريف الصعب، حيث أغرى فضوله العلمي بما يثيره من مشاكل وقضايا، تعد من صميم اشتغاله العلمي، مما دفعه إلى التمسك به إلى النهاية، فأضحت جل[24] عنايته بعد سنة 1961 مركزة على هذين الفنين الشعريين المستحدثين (الموشح/الزجل) بشكل دفعه إلى العزوف بعض الشيء عن ترجمة النصوص الشعرية الكلاسيكية، فظل حينها يفك مغالق فن الزجل ويحل مشاكله وقضاياه المستعصية التي علقت به وكانت سبب انصراف العلماء عن مدارسته وترجمة نصوصه وتحليلها.

ولهذا ففي كتابه الضخم "كل ما يتعلق بابن قزمان"، سيوضح بشاعرية وبإحساس القارئ المتذوق لهذه الأزجال، وبقلم العالم الماهر الخبير الذي خابر الميدان منذ خمس عشرة سنة بسلسلة متنوعة من الدراسات والترجمات، سيوضح فيها كثيرا من الحقائق حول عالم ابن قزمان الشعري، وسيفك كثيرا من الألغاز المرتبطة بإيقاعاته وعروضه ولغته ومواضيعه...

وتتجلى أهمية هذه الدراسات في كونها تكشف عن التطور الذي عرفه فن الزجل بإسبانيا الإسلامية، والتفاعلات التي شهدها الشعر الأوروبي عامة بسبب احتكاكه وتأثره بهذا النوع الفني المستحدث بإسبانيا العصر الوسيط.

= منها وهما يدرسان ديوان ابن قزمان المتعلقة باللغة الرومانثية وبإيقاع الازجال... والخلاصة السريعة التي يمكن استخلاصها من .....هذا السجال العلمي الرفيع هي أن منبع الاختلاف بينهما كان مرده إلى طريقة شرح وتخريج وتأويل بعض أصول الكلمات الرومانثية التي وردت في أزجال ابن قزمان، والتي كانت لصعوبتها مثار نقاش طويل ليس بينهما فقط، بل أيضا بين كثير من العلماء المختصين في اللهجات الرومانثية بإسبانيا الإسلامية، وكذا العلماء المهتمين بقضايا الشعر الأندلسي في العصر الوسيط، فاتخذ غوميث مجلة "الأندلس" منبرا لبسط آرائه في الموضوع بينما اعتمد الأهواني على صحيفة "المعهد المصري للدراسات الإسلامية" في ذلك.

24 - لم نقل هنا "كل عنايته بهذين الفنين" أو انصرافه المطلق إليهما، وإنما أوردنا كلمة "جل"، لأنه ترجم في أثناء ذلك نماذج من الشعر الأندلسي الكلاسيكي، فواكب العمليتين معا وفي نفس الوقت، وإن كان اهتمامه آنذاك بالزجل والموشح أكثر وأبرز.

5. "الكَالْكو ريتْمِكو" أو نحو تقنية بديلية في ترجمة الشعر الأندلسي المستحدث.

وربما كان أبرز وأهم ما يميز تعامله مع هذين الفنين (الموشح والزجل) على مستوى الترجمة، هو توظيفه لطريقة أو لتقنية مغايرة عما ألفناه في أعماله السابقة، أثناء ترجمته للشعر الأندلسي الكلاسيكي. وهذه التقنية فريدة من نوعها أطلق عليها إميليو غارثيا غوميث مصطلح "الكَالْكو ريتْمِكو" "Calco Rítmico".

فهل أراد غوميث، باستخدامه لهذه التقنية، الارتفاع أسلوبيا ومنهجيا وفنيا بمستوى ترجمة الشعر الموشحي والزجلي، كما فعل عندما انتقل أثناء ترجمته للشعر الكلاسيكي من أسلوب الترجمة النثرية إلى الترجمة الشعرية؟

هل قصد بذلك الارتقاء بهذه الترجمة إلى حد المطابقة التامة مع النص الأصلي، أم كانت هناك أهداف ونوايا أخرى مضمرة؟ وما هي القضايا الأساسية التي يمكن أن نستخلصها من أعماله وإنجازاته في ترجمة نصوصهما؟

في الحقيقة هناك أولا مسألة في غاية الأهمية، والتي تعتبر أكثر اتصالا بموضوعنا، وهي أن اختياره لهذين الفنين ونقل نصوصهما إلى الإسبانية جاء لتدعيم نظريته حول إسبانية إيقاعهما، ولغتهما، وطريقة تناولهما للأغراض الشعرية، وأن هذا التراث الشعري المستحدث في إسبانيا الإسلامية، في تصوره، فيه من العناصر الكثيرة ما تنتمي إلى المنظومة الجمالية الإسبانية في مظاهرها الأولى المبكرة. وبالتالي، وأثناء اعتماده طريقة "Calco Rítmico" في ترجمة نصوص هذين الفنين، فإنه لم يكن يفعل، في نظره، أكثر من أنه يعيد هذه النصوص إلى أصولها الحقيقية (أصول إسبانية)، لذلك نراه يورد أدلة وسياقات حضارية وأخرى تاريخية فنية مبررة لذلك.

كان دائما يحاول أن يختار في هذا الفن نصوصا ذات ظلال ثقافية وفنية تنتمي مرجعيا إلى حياة المسيحيين وإبداعاتهم، أو لأن أصحابها، في تصوره، إسبان يصدرون عن

واقع إسباني، ويتناولون معطيات تنتمي فنيا وتصورا إلى حياة المسيحيين، وأساليب تفكيرهم، وتعبيرهم عن واقعهم بشكل عام.ولتحقيق تصوره في إسبانية هذا الفن، توسل بتقنية Calco Rítmico في الترجمة التي جاءت معتمدة على ما يلي:

أولا- استخدام الكتابة اللاتينية، عند النقل الخطي الكاليغرافي للنصوص الزجلية العربية، أي أنه أورد أزجال ابن قزمان مكتوبة بالرسم وبالحرف اللاتينيين، وليس بخطها العربي الأصلي الذي وردت به في مظانها.

ثانيا- التزامه بعدد أبيات الأزجال وترتيبها بعد كتابتها بالحروف اللاتينية، وتقيده بكل ما ورد في الأصل مع مقابل لها بالإسبانية في الصفحة المقابلة، ليوصل القارئ الإسباني إلى الإدراك، في النهاية، بأن التشابه في الإيقاع قائم بين النصين (نص الزجل العربي وترجمته بالإسبانية)، وأن ليس هناك اختلافات جوهرية بينهما، لكنها اختلافات بسيطة حدثت بفعل عوامل تطور هذا الأصل القديم إلى ما نجده الآن في الإيقاع الإسباني الحديث، مما يسهل مقارنة الترجمة الإسبانية بالأصل العربي. وللخلوص إلى نتيجة أساسية حاسمة، وهي أن هذا التوافق أو التشابه الحاصل بين إيقاع الزجل وإيقاع الشعر الإسباني عامة) لا يمكن تفسيره إلا بحقيقة واحدة، تبدو وجيهة ومنطقية عنده، ومن منطلقاته وتصوراته، وهي أن الإيقاع الإسباني إنما هو امتداد واستمرار فني وصوتي متطور للإيقاع الأندلسي، الذي هو بدوره تأثر بمعطيات أو روافد تنتمي إلى جذور إسبانية إيبيرية غير عربية، كانت موجودة قديما بإسبانيا، واستمرت جنبا إلى جنب مع الإيقاع العربي الخليلي، وإن لم تأخذ حظها من العناية والاهتمام الضروريين، نظرا لسيادة الثقافة الرسمية آنذاك، التي كانت ترعاها الدولة الإسلامية الرسمية بالأندلس، وترى في بقائها واستمرارها وازدهارها استمرارا وبقاء وازدهارا لسيادتها وسلطانها، في تلك المرحلة. ولتوضيح صورة هذا التقارب بين نص الزجل وبين ترجمته بالإسبانية، نورد مقطعا من أزجال ابن قزمان من كتاب غوميث" كل ما يتعلق بابن قزمان"[25]، *Todo BenQuzmān*. الأول من زجل يحمل رقم 134 في موضوع "الحب"،

---

25 - García Gómez, E. Todo Ben Quzmān. Págs. : 664 - 665 y 674 - 675

المقطع الأول:

الكتابة الخطية الكاليغرافية اللاتينية للزجل كما وردت في كتاب غوميث	ترجمته بالإسبانية كما أنجزها غوميث
0 Anšab-nībi-l-hawā | ʿainiy | az-zānī	0 Red de amor tienden mis | ojos | malditos
wa-qalbiy alladī yaṭmaʿ .	y el corazón insaciable
1-Qālū ʿannī : l-hawá zaịnī	Diz que el amor tengo por gala
wa-thāwadq albī maʿʿainī	que el corazón y los ojos.
Hattásā qū-nī 'láhainī.	para morir me arrastraron
Yāʿainī: ¿'išrait in | tafá | 'ağfānī?	¿No veis mis párpados, | ojos, | borrarse?
Wa- 'ett, yā qalbiy, ¡atqattaʿ !	y, ay Corazón, tú te rasgas.
2 Našabtum fi hawá manlā yaşil-kum abadan, illā	En el amor me enredasteis del que jamás me hace caso,
- in rā-kum muqbilīn – wallá. Wa- 'ahlāq da l-malīh | zāyid | l-ahzānī , idāwallá, fa-les yarğa	y, si me ve venir, huye De ese garzón crece el | genio | mis, pues, si se va, nunca vuelve Dios! bien querido
3 ¡ Yārabbī! W-eš yakūn minnī	Dios, ¿qué va a ser de mí ahora?
¡ Yazlam-nīhibbī, yazlam-nī !	¡Bien me maltrata y maltrata!
Nahwāh anā, wa-hahğur-nī.	Quiérolo, yo, y él me evita

إذن، ففي هذه التقنية (Calco Rítmico)، لا يستلهم غوميث الشكل الهندسي الخطي الذي كتب بهما النصان (النص العربي وترجمته) وكلاهما كتب بأحرف لاتينية، لأغراض علمية خالصة، وإنما يعمد إلى ذلك لإعطاء صورة عن التماهي الموجود بينهما إيقاعيا وخطيا، وليؤكد بأن شعرالزجل هذا، له إيقاع أو بنية صوتية عروضية نبرية كالإيقاع الإسباني وليست بنية مقطعية كعروض الخليل العربي الذي نظمت به كافة النصوص الشعرية الكلاسيكية، كما أن في نصوصهما "تدوير" وهي طريقة مخالفة للأسلوب الشعري العربي المتين الذي تنتهي فيه الفكرة أو المعنى مع نهاية كل بيت، عكس ما نجده مثلا في الزجل الذي تمتد معانيه إلى أبيات موالية لاحقة. ومن هنا يتضح في تصوره الفرق بين الشعر العربي العمودي الفصيح وشعر الزجل الذي هو أقرب في كل هذا إلى الشعر الإسباني منه إلى الشعر العربي الكلاسيكي، إذ أن الشعر العربي يفضل وحدة البيت ويقرنها بوحدة معناه، ويكره التدوير، ويمجه الذوق العربي الأصيل ويعتبره عجزا من الشاعر، لعدم قدرته على احتواء معانيه في بيت واحد لا يتعداه. فغوميث في سعيه المستمر هذا ومن خلال اعتماده على هذه التقنية في الترجمة، كان يحرص كل الحرص على إيجاد الصلات أو عناصر الائتلاف بين إيقاع الزجل والموشح وبين الإيقاع الإسباني. فقد حاول من خلال أعماله التي تناولت هذين الفنين بالدراسة أو بالترجمة، إثبات درجات التشابه ومستويات التماهي الحاصلة بين الإيقاعين معا، وأن الإيقاع الإسباني الحديث إنما هو امتداد وتطور لإيقاع الزجل الذي هو بدوره له جذور إسبانية محلية.

ولإثبات صحة نظريته هذه ووجاهتها، كما ذكرنا سالفا، يبدأ بشكل ضمني بإقامة أدلة ملموسة على عناصر التشابه بينهما في الإيقاع، وفي الشكل الهندسي الكاليغرافي، الذي كتب بها النصان، بالإضافة إلى أن هناك تشابها بينهما حسب تصوره من خلال تركيب الجملة، وتوزيعها في القصيدة، وكذا في المقطع الشعري، والإيقاع الخفيف المرح البعيد عن رتابة العروض العربي.

ومن ثم، فليس غريبا أن توجه جهوده الكبرى في الترجمة إلى نصوص من هذين الفنين(الزجل والموشح) بعينهما، وأن يتابع إنجازاته العلمية في ضوء قناعته وتصوراته بأنهما إسبانيان وليسا عربيين.

كما أن استقراء دقيقا لمحتويات ومضامين مقالاته ودراساته أيضا حول هذا الفن، وتتبعا لمسيرته العلمية، يكشف لنا جملة قضايا جوهرية، لعل أبرزها هي أن غوميث كان يبحث دائما عما يوصله إلى اقتناع علمي، على الأقل بالنسبة إليه، حول إسبانية الموشح والزجل وإيقاعهما ومكوناتهما الصوتية والعروضية، وأن عروضهما يختلف بشكل واضح عن العروض العربي القديم.

وقد ساعده نفوذه العلمي، وعلاقاته، وطاقته التي لا تعرف الكلل والملل، في العثور على نصوص مؤيدة لتصوراته ورؤاه حول أصول وامتدادات هذا الفن في الأندلس. فكان يعمل على سبر أغوارها وتقليبها من جميع أوجهها، لاقتناص كل ما يريد منها، وما يزكي منطلقاته المستنبطة سلفا عن الموضوع.

فظل في أغلب مراحل حياته العلمية يبحث عن كل جديد منها، كما كان يغتنم كل فرصة أو مناسبة ليعلن عن صحة أفكاره ومصداقيتها، ووجاهة النتائج التي يتوصل إليها في هذا الباب. ومن ثم كان يضع فرضياته التي كانت محكومة بنتائج معروفة سلفا، وبطريقة مسبقة حتما عن الموضوع المطروح، فيبحث لها عن مستند أو دليل مرجعي علمي، أو فني، أو تاريخي، أو اجتماعي يؤيد ما بناه حول هذين الفنين من قناعات.

ولهذا فغوميث كان يمارس في بعض الأحيان الترجمة الإسقاطية، خصوصا عند ترجمته أو دراسته لهذين الفنين.فهو ينطلق من مسلمات نضجت سابقا عنده، فيبحث لها فيها عما يزكيها. وهذا ما كان ينعكس على أعماله في بعض مظاهرها، بحيث تصبح هذه التصورات هي التي تقود أعماله وإنجازاته، وتسيرها نحو النتيجة التي هي مرسومة سلفا ومنذ البداية، دون أن ينطلق في كل ذلك من هذا الفن وينتهي إليه.

إذن، ما يثير الانتباه في هذه الإنجازات، هو أن ذات غوميث، العلمية، تظل حاضرة في إنجازاته، وإن كانت لا تأخذ قدرا كافيا من الحيادية في ذلك. ولهذا نجد أن هذه النصوص تخدم طموحه ورؤاه وتصوراته العلمية، التي من أجلها يسعى إلى إخراج هذه الترجمات إلى حيز الوجود، فتغدو بذلك شاهدة ومعززة في نفس الوقت لتلك الأفكار، التي دخل بها أول مرة إلى عالم النصوص التي يود ترجمتها.

ولهذا اهتم كثيرا بهذا المبحث (مبحث ترجمة الموشح والزجل)، وأولاهما معظم جهوده العلمية، ولم يسخر ولو ربع هذه الجهود مثلا لخدمة العروض العربي الكلاسيكي، إلا في مناسبات قليلة جدا، حينما تطرق إلى الإيقاع الكلاسيكي كما نظر له التيفاشي، لا لشيء إلا لكي يؤكد نظريته في إسبانية إيقاعات الموشح والزجل.

وحتى طريقة Calco Rítmico التي اعتمدها في نقل نصوصهما، فهو لم يلتجئ إليها إلا لأنها تحافظ بصورة أمينة على عروض وإيقاعات هذين الفنين، أثناء عملية الترجمة، وتتيح إمكانيات أكبر لمعرفة مكوناتهما الجوهرية، حتى بعد أن يخضعا لعملية الترجمة والنقل من اللغة العربية إلى اللغة الإسبانية، وذلك لأهداف كما قلنا كامنة في تصوراته مسبقا، وهي تأكيده على التشابه الكبير بين الإيقاع الإسباني وإيقاعهما. وهي طريقة دقيقة توسل بها غوميث، من أجل البحث عن أصول وجذور وامتدادات العروض الإسباني الإيبيري عموما، الذي، في اعتقاده، مع الموشحات والأزجال، باعتبارهما نماذجه وتجلياته الأولى المبكرة.

ونحن لا نشك إذن، في دقة ترجمات غوميث لهذين الفنين، أو لفنون شعرية أندلسية أخرى، أو نطعن في جودتها، أو كفاءتها وعمقها، فهذه أمور وحقائق مسلم بها من قبل كبار العلماء والباحثين في العالم، وإنما نشك في أنه كان موضوعيا، وأنه كان ينجزها بدون خلفيات أو منطلقات أو رؤى مخالفة لما هو سائد في التصورات والقناعات العربية، بل إن هذه الخلفيات تظل تسيره، وتؤطر أعماله وتوجهها، مثل كيف يختار؟ وماذا يختار؟

وما هي المباحث أو النصوص التي تشكل مرتبة الأولية، وتستحوذ على اهتمامه قبل غيرها؟...

ولهذا كانت هذه الإنجازات العلمية في قراءتها للتراث الشعري الأندلسي تعتمد على جذور لاتينية أيبيرية، في تفسير كل جديد مستحدث في إسبانيا الإسلامية، من فنون وآداب وعلوم، وردها إلى أصول إسبانية قديمة، نبتت في أرض شبه الجزيرة الأيبيرية، مع السعي الدائم والمتواصل وراء البحث عن أدلة لتزكية ذلك من هذا التراث.

فكان هذا الموقف العلمي منطلقا لغوميث في دعوته المعروفة لإعادة النظر في هذا الشعر وترجمته ودراسته. فهو ما فتئ يحمل دعوة لاستثمار نماذج من هذا الشعر، ويسعى إلى تجديد الحياة فيها.لكن استعادة هذا التراث تنطوي عنده على كسر المسافات الزمنية والفنية بين الماضي والحاضر، ليصبح هذا الشعر حيا، يعيش حاضرنا وعصرنا، ويقفز على حدود زمنه، ونظمه، ليكتب له حياة جديدة، حبلى بالأجوبة الهادفة، رغم طول العهد وبعد العصر. هذه الأجوبة التي يظل غوميث في حالة من التنقيب المضني المستمر عنها، في متون هذه النصوص، لتزكية تصوراته.

- تركيب:

وبناء على ما سبق فإننا ندعو هنا،إلى عدم الانسياق الكلي والمطلق وراء الأفكار التي تنادي بأن غوميث كان يدرس التراث الشعري الأندلسي بتجرد وبرؤى موضوعية، وبدون خلفيات أو قناعات مسبقة، توجهه وتؤطر أعماله من وجهة نظرها، ومن منطلقاتها المحكومة مسبقا بنتائج معروفة.

فكل الدلالات تؤكد لنا عدم براءة أهداف الترجمة عنده، وعدم موضوعيتها إزاء هذا التراث، رغم دقتها وعمقها وبلاغتها وكفاءتها. فغوميث لم يكن عمله خالصا لوجه هذا التراث، وإنما كانت هناك بواعث وملابسات ترتبط بالذات الإسبانية، في سعيها إلى البحث عن أجزائها الثقافية والحضارية والتاريخية، الكامنة في هذا التراث العربي الأندلسي. وهذا

التصور فرض عليه اللجوء، من وجهة نظر انتقائية اختيارية، إلى ترجمة نصوص لم يكن له بد من اللجوء إليها، لولا توفرها على مختلف المعلومات الهامة المحيطة بثقافة إسبانيا العصر الوسيط، في شتى تمظهراتها وتلويناتها، حتى تكون منسجمة مع ما كان يطرحه ويبتغيه منها.

حقيقة أنه تعامل مع التراث الأندلسي في شموليته ومباحثه المختلفة، ولكنه كان يركز بشكل أساسي واستراتيجي على ما كان يتوفر فيه من معطيات، تنتمي مرجعيا إلى المنظومة الحضارية والثقافية الإسبانية. وبذلك كان غوميث يصدر عن رؤى غربية، في كثير من آرائه حول تمجيد الذات الإسبانية، في جوانبها المشرقة في مرحلة العصر الوسيط.

إن غوميث وغيره من المستعربين الإسبان المحدثين، أمثال ريبيرا وبالنثيا وبلاثيوس وغيرهم، ينطلقون في تعاملهم مع التراث الأندلسي من مسألة "المركزية الإسبانية" في مقابل "المركزية الأوروبية"، ومن مسألة تضخيم الذات الإسبانية، بإرجاع كل شيء تأثرت به دول أوروبا إلى التراث الأندلسي، هذا التراث الذي هو- حسب تصورهم- في عمقه وأصوله وامتداداته، ثقافة إسبانية، في تجلياتها القديمة المبكرة، بناها إسبان مسلمون بتفكير وعقلية إسبانيين محليين لكن بلغة عربية.

وبالتالي فإن تأثر هذه البلدان الأوروبية بشتى أنواع المعرفة والآداب والفنون الأندلسية، إنما هو في بعده وجوهره، تأثر بالمعرفة والآداب والفنون الإسبانية القديمة للعصر الوسيط. هذا التصور نجده بحدة بالغة الخطورة عند بالنثيا حينما يقول: «وفي كل الحالات، عندما نتذكر التراث الذي أضافه الإسبان المسلمون إلى الحضارة الأوروبية، نشعر بالزهو لأن هؤلاء الذين خلفوا لنا هذه الروائع الفنية من الزجل والموشحات والنظريات الفلسفية، التي تربى عليها المفكرون الغربيون، وكتب العلم والطب، التي أسهمت في أن تجعل من الحياة الإنسانية شيئا أجمل وأفضل، والذين بلغوا القمة بالحضارة

على أيامهم، وجعلوا من إسبانيا أرقى دول أوروبا ثقافة. هؤلاء كانوا أجدادنا، من جنسنا وليس عدلا أن نجردهم من إسبانيتهم لمجرد أنهم كانوا مسلمين[26] ».

ومن هنا تتجلى الأهداف الاستراتيجية والمركزية التي ينبني عليها الاستعراب الإسباني الحديث عامة،في رد كل إبداع أو فن أو تيار علمي أو فكري، ظهر بإسبانيا، إلى جذور إسبانية لاتينية قديمة.

بينما اتصفت إنجازات العلامة محمد بن شريفة، في تناولها للأزجال الأندلسية، كأفق للدراسة والبحث والتحليل بالنزاهة والموضوعية، حيث سعى من خلالها إلى وضع أسس علمية، قائمة على تصورات ورؤى لا تلغي الأثر الإسباني الإيبيري في هذه النشأة، كما لا تنتصر بشكل مطلق وأحادي الجانب، للتصورات العربية، وإنما تحتكم إلى منطق التاريخ والتفاعل الثقافي والحضاري بين التراثين: التراث العربي /الإسلامي والمسيحي الإيبيري، الذي أضحى من ثمراته نشوء هذه الفنون الشعرية المستحدثة بإسبانيا الإسلامية وتطورها.

---

26 - مكي الطاهر أحمد، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة دار المعارف، القاهرة الطبعة الثالثة 1987 .

. المصادر والمراجع بالعربية :

1. بن شريفة محمد، "تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب" منشورات وزارة الثقافة سنة 2006.

2. بحراوي حسن، "أدب محمد شكري: من الهامشية إلى المركزية"، الملحق الثقافي لجريدة العلم المغربية، السبت 14 يونيو 2003.

3. بروفنصال ليفي، "أدب الأندلس وتاريخها" ترجمة إلى العربية شعيرة محمد عبد الهادي، القاهرة 1951، 4- مكي محمود علي، "ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي، المجلس الأعلى للثقافة، سنة 1999 .

4. مكي الطاهر أحمد، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة دار المعارف، القاهرة الطبعة الثالثة 1987

المصادر والمراجع بالإسبانية

1. Vallvé Bermejo, J. "Don Emilio García Gómez, conde de los Alixares" Cairo, 1998.
2. García Gómez, E."IbnQuzmān editado por Nykl". *Al-Andalus.* Vol. I Fasc: II (1933)
3. García Gómez. E. *Todo Ben Quzmān*. Madrid,
4. García Gómez, E. "Aben Guzmān, una voz en la callé (siglo XII)", *Cruz y Raya*. (1933)
5. Gibert Soledad. "Sobre el (Todo Ben Quzmān) de García Gómez" *Al-Andalus. Vol. XXXVII. Fasc: I.* (1972).
6. García Gómez, E. "El zéjel X de IbnQuzmān" *Al-Motamid*, 12. Larache. 1948

شخصيات مغربية من أصول أندلسية
قاومت من أجل استقلال البلاد

ذ.محمد ياسين الهبطي

عند الحديث عن الأندلسيين، باعتبارهم إحدى مكونات المجتمع المغربي، غالبا ما يتم التركيز على ما جاؤوا به من فنون الطبخ والموسيقى واللباس ونمط العيش وغير ذلك، وقلّما يتم التطرق إلى العنصر البشري، فكرا وسلوكا ومواقف.

في مداخلتنا سنحاول إبراز جانب غير مركز عليه في الدراسات التاريخية، يتعلق الأمر بعدد من الشخصيات المغربية المنحدرة من أصول أندلسية، ساهمت بجهد كبير في الدفاع عن المغرب، خلال فترات تاريخية مختلفة. والمعيار الأساس الذي اعتمدنا عليه في اختيار هذه الشخصيات/ النماذج هو أولا الأصل الأندلسي، ثانيا الدور الذي قامت به في الدفاع عن استقلال المغرب.

1. السيدة الحرة بنت مولاي علي بن راشد: الشفشاونية التي حكمت تطوان.

هي المرأة التي اشتهرت في الكتابات التاريخية "بالسيدة الحرة" و"الست الحرة"، ولن ندخل في نقاش حول أصل التسمية، أو هل هذا هو اسمها الحقيقي، لأن ما يهمنا في هذه المداخلة هو أصلها الأندلسي، والجهود الجهادية التي بذلتها من أجل الوقوف في وجه الغزاة والمعتدين.

السيدة الحرة هي بنت الأمير علي بن موسى بن راشد مؤسس مدينة شفشاون الذي كانت له تجربة حربية في الأندلس، وفيها تزوج من سيدة إسبانية تنتمي إلى مدينة Veger de la Frontera، وأصبح اسمها للازهرة، حيث أنجبت منه ابنتها "الحرة".

وكما أجمعت المصادر التاريخية على ذلك، فقد بنيت مدينة شفشاون لتكون قاعدة للجهاد ضد القوات الإيبيرية، التي كانت قد تمكنت من احتلال عدد من الثغور المغربية، وحاولت التوغل داخل التراب الوطني[1]، وفي الوقت نفسه كان المسيحيون يزحفون نحو الأندلس مما دفع بالآلاف من الأندلسيين إلى الهجرة نحو المغرب وبلدان أخرى.

وكانت ولادة السيدة الحرة سنة 1493م، أي سنة واحدة بعد سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس. ومع وصول الأندلسيين الفارين والمهجرين من بلادهم، حاملين معهم الإحساس بالظلم والرغبة في الانتقام من المعتدي، أصبحت المناطق التي استقروا بها أكثر حماسا وتحفيزا لمواجهة الإيبريين. في هذه الأجواء كبرت وترعرعت السيدة الحرة، وهي أجواء لاشك وأنها ساهمت بقوة في تكوين شخصيتها، وجعلها متشبعة بفكرة مقاومة المعتدي.

بالفعل فقد كانت السيدة الحرة ابنة بيئتها، ونتاج السياق التاريخي الذي نشأت فيه. وما يثبت ذلك هو المرحلة الثانية من حياتها التي عاشتها بمدينة تطوان، باعتبارها حاكمة لها ومدافعة عنها بعد وفاة زوجها المنظري.

طبعا سوف لن نترصد جميع مراحل حياة السيدة الحرة، لأن ذلك ليس موضوعنا، لكننا سنكتفي بإبراز إلى أي حدّ تمتعت هذه المرأة ذات الأصل الأندلسي، بحسّ وطني، دفعها إلى تنظيم عدد من العمليات الجهادية ضد الإيبريين الذين حاولوا التوغل داخل المناطق الشمالية للمغرب. وقد كان العمل الجهادي هو الذي ميز فترة حكمها لمدينة تطوان انطلاقا من توليها الحكم سنة 1527م.

---

1 - احتلت طنجة وأصيلا في غشت 1471، بعد أن احتلت سبتة سنة 1415.

لقد اتفق الباحثون على أن المنظري الثاني، زوج السيدة الحرة، كان شديد الاهتمام بالجهاد البحري، انطلاقا من مرسى "مرتين". وكان قد كلف بقيادة الأسطول البحري الجهادي والإشراف عليه مهاجرين أندلسيين، لهم دراية بالمجال البحري والسفن المسيحية[2]، وقد ورثت السيدة الحرة هذا الأسطول وعملت على تطويره وتقويته مبرزة الرغبة في استمرار الجهاد البحري، ومؤكدة على ذلك بتمتين علاقتها مع الأتراك الذين سمحت لسفنهم، ذات المهمة الجهادية، بالرسو في مرسى "مرتين" ابتداء من سنة 1530م، والانطلاق منه لمهاجمة الإيبريين في الساحلين المتوسطي والأطلسي، بل والقيام بعمليات مشتركة[3].

ويشهد صاحب حوليات أصيلا Rodrigues.B.Arais بأن المغاربة أصبحوا أكثر خبرة ومهارة في شؤون البحر عما كانوا عليه[4]، حيث أن التعاون المغربي التركي جعل حكام المدن الإيبيرية الساحلية في خوف دائم، وأخذ كل منهم يحصن منطقته حتى يأمن هجومات أسطول السيدة الحرة المدعوم بأسطول "بارباروس" التركي[5].

2. علي المنظري الغرناطي حاكم تطوان

إن السياق التاريخي الذي جاء فيه تأسيس مدينة شفشاون هو نفسه، بصفة عامة،الذي حصل فيه تجديد بناء مدينة تطوان، في هذا الإطار كتب الحسن الوزان: "ثم جدد بناءها [أي تطوان] قائد أندلسي جاء إلى فاس مع ملك غرناطة [أبو عبد الله محمد] عندما سقطت هذه المدينة بيد فرناندو ملك إسبانيا"[6]. بمعنى أن إعادة بناء تطوان كان على يد مهاجرين أندلسيين، اختاروها لتكون قاعدة للجهاد ضد البرتغاليين والإسبان.

---

2 - *أحمد قدور، تساؤلات حول شخصية الست الحرة حاكمة مدينة تطوان، أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و17، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 1996 ص: 142.*

3 - نفسه، ص: 143.

4 - نفسه.

5 - نفسه.

6 - *الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج II، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص: 318*

ولاشك في أن الاختيار لم يكن صدفة من طرف علي المنظري، الرجل الذي خبر القتال في الأندلس، حيث كان أحد قواد جيش أبي عبد الله محمد (الصغير) آخر ملوك بني نصر بغرناطة.

وقد وثق الحسن الوزان لبعض الأعمال الجهادية للمنظري حين كتب: "وكان هذا القائد محاربا مقداما، حقق أعمالا بطولية خلال حروب غرناطة، فأعاد بناء جميع أسوار تطوان، وشيد فيها حصنا حصينا أحاطه بخنادق، وفعل مثل ذلك بأسوار المدينة، وكانت له بعد ذلك حروب لا تنقطع مع البرتغاليين، وكثيرا ما ضيق الخناق على سبتة والقصر وطنجة"[7].

كما تحدثت عدد من المصادر التاريخية الإسبانية والبرتغالية عن تلك المجهودات الجهادية[8]، وكتب عنه مارمول كاربخال قائلا: «بقيت [تطوان] خربة طوال تسعين سنة، حتى تسلمها من ملك فاس،المنظري الذي عبر إلى إفريقيا عقب احتلال غرناطة، ليزيح منها المسيحيين. فعمرها من جديد، ورمم أسوارها، وشيد حصنا أحاطه بخندق كان يلتجئ إليه، ويشن منه غارات على حدود سبتة والقصر وطنجة بأربعمائة فارس جاؤوا معه من الأندلس، ومغاربة آخرين من هذه الجبال، وصار يهاجم الإسبانيين بحرا وبرا»[9].

وقد كانت العمليات الجهادية البرية تتم بتنسيق مع مجاهدي شفشاون، حيث كانت قوات المدينتين تلتقي في مركز جبل الحبيب، عند الاستعداد للهجوم على طنجة، وفي

---

7 - *نفسه،. ص: 318-319..*

8 - *انظر حول الموضوع:*

- *عبد الحي بنيس، تطوان ومقاومة الاحتلال البرتغالي في النصف الأول من القرن 16 من خلال المصادر الأجنبية، أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و17، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 1996.*

- *محمد رزوق، جوانب من تاريخ الجهاد البحري بتطوان خلال القرن السادس عشر، أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و17، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان 1996.*

9 - *مارمول كرنجال، إفريقيا، الجزء II، ترجمة محمد حجي ومحمد زنبير ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، 1983-1984، ص: 222.*

بني عروس عند نية الهجوم على مدينة أصيلا[10]. كما كانت ا لعمليات البحرية المشتركة تتم انطلاقا من "مرسى ترغة" الذي كان تحت إشراف علي بن راشد، ومن "مرتين" الذي كان خاضعا للمنظري[11].

3. عبد الخالق الطريس زعيم حزب الإصلاح الوطني:

الشخصية الثالثة التي اخترناه نموذجا لمساهمة مغاربة من أصول أندلسية في الدفاع عن استقلال البلاد، هي عبد الخالق بن أحمد بن محمد الطريس، أحد أبرز وجوه الحركة الوطنية في بلادنا، خلال فترة الحماية.

ولد عبد الخالق الطريس في مدينة تطوان، داخل أسرة أندلسية الأصل. وعند سن الثامنة عشرة، توجه إلى القاهرة لمتابعة دراسته الجامعية، ثم بعدها إلى جامعة السربون بباريس، مما أكسبه ثقافة ومعرفة بواقع غير الواقع المغربي، وسمح له بلقاء عدد من زعماء ووطنيي الأقطار الأخرى، والتعرف على الأحزاب السياسية ورجالاتها في كل من مصر وفرنسا.

خلال مسيرته الدراسية والنضالية راكم الطريس مجموعة من التجارب، وحقق عددا من الإنجازات، مما مكنه من البروز كزعيم وطني وأديب وخطيب قل نظيره.

وبما أنه من غير الممكن، في هذه المداخلة، إبراز جميع الأعمال الوطنية التي قام بها هذا الرجل، سنكتفي بتقديم بعض المحطات النضالية التي كان فيها حاضرا بقوة.

فقد شارك عبد الخالق الطريس في تأسيس أول تنظيم وطني سري في شمال المغرب، عقب الزيارة التي قام بها الزعيم القومي شكيب أرسلان إلى تطوان، في غشت 1930م، حيث كتب في مذكراته: «أسسنا اليوم [5 شتنبر 1930] هيأة وطنية سرية

---

10 - عبد الحي بنيس، مرجع سابق، ص: 72.

11 - نفسه، ص: 74.

بتطوان، وذلك على إثر الاجتماعات التي عقدناها خلال الأسبوع، مرة بدارنا ومرة أخرى بدار الحاج عبد السلام بنونة»[12].

وفي سنة 1932م أسس "جمعية الطالب المغربية"، كواجهة ثقافية للعمل الوطني. وخلال نفس السنة قدم طلبا إلى السلطات الاستعمارية الإسبانية لإصدار جريدة "الحرية"، وأخرى تحمل اسم "الإصلاح"[13].

وفي 1 مارس 1934م صدر العدد الأول من جريدة "الحياة"، وهي «جريدة أسبوعية حرة تدافع عن المصالح القومية»[14]، حيث كان عبد الخالق الطريس هو مديرها المسؤول.

واعتبارا لقوة شخصيته، وثقافته الواسعة، ونشاطه الوطني، اختاره وطنيو الشمال، في إطار "هيأة العمل الوطني" ليكون ضمن الوفد الذي سافر يوم 29 يناير 1934م إلى مدريد، لإجراء مباحثات مع الحكومة الإسبانية.

وعلى مستوى آخر ساهم الطريس بفعالية في تأسيس "المعهد الحر بتطوان"، في نونبر 1935م، وهو أول ثانوية عصرية وطنية في بلادنا.

وقد توج عمله الوطني، على المستوى التنظيمي، بالمساهمة في تأسيس حزب الإصلاح الوطني (الذي أصبح زعيما له)، بعد أن كان أحد الأعضاء المؤسسين ل"الهيأة التحضيرية لنظام حزب الإصلاح" و"هيأة العمل الوطني في شمال المغرب" و"كتلة العمل الوطني في شمال المغرب".

---

12 - محمد بن عزوز حكيم، يوميات زعيم الوحدة، ج 1، مطبعة الساحل، الرباط، 1990، ص: 110.

13 - هيأة التحرير، مجلة السلام أول مجلة وطنية صدرت بالمغرب، مجلة الوثائق الوطنية، عدد 2، تطوان، يونيو 1988، ص: 124.

14 - كانت هذه الجملة مكتوبة مباشرة تحت عنوان الجريدة.

ولم تقتصر مجهودات الطريس الوطنية على داخل المغرب بل امتدت إلى خارجه أيضا، حيث برز حضوره القوي في القاهرة من خلال "مكتب المغرب العربي"، و"لجنة تحرير المغرب العربي"، إذ ساهم بشكل واضح في التعريف بالقضية المغربية على الساحة الدولية.

وقد توفي الزعيم عبد الخالق الطريس في مدينة طنجة يوم 27 ماي 1970، ودفن في تطوان.

4.عبد السلام الحضري رئيس فرع حزب الإصلاح الوطني بشفشاون:

هو الفقيه عبد السلام بن عبد القادر الحضري، ولد في مدينة شفشاون يوم فاتح دجنبر 1910م، تابع دراسته في مسقط رأسه ثم في تطوان، على يد علماء مشهورين أمثال أحمد الرهوني، ومحمد الصادق الريسوني، وأحمد الزواقي، ومحمد الفرطاخ، وبعد ذلك انتقل للدراسة إلى فاس قبل أن يعود إلى شفشاون[15].

ينتمي السيد عبد السلام الحضري إلى أسرة أندلسية الأصل، قدمت إلى شفشاون «وهي لازالت قرية، أي قبل تأسيسها كمدينة»[16]. أتتها من مدينة حضرة، وهي ميناء يوجد بين ألمرية والمنكب في اتجاه مليلية، وهو الميناء الذي ركب منه أبو عبد الله (الصغير) آخر ملوك بني الأحمر بغرناطة للتوجه نحو المغرب[17].

وبفضل ثقافته وروحه الوطنية، أصبح رجلنا من الوطنيين البارزين داخل مدينة شفشاون، حيث انتخب سنة 1937م ضمن أعضاء مكتب فرع حزب الإصلاح الوطني، مكلفا بمهمة أمين المال[18].

---

15 - من وثيقة كتبها السيد عبد السلام الحضري عن نفسه وأسرته، أمدتنا بها ابنته الأستاذة رحمة الحضري.

16 - نفسه.

17 - نفسه.

18 - بدون كاتب، أخبار حزب الإصلاح الوطني، الريف، عدد 33، 24 دجنبر 1937.

وفي سنة 1938م أصبح السيد عبد السلام الحضري رئيسا لفرع حزب الإصلاح الوطني بشفشاون، وعضوا في اللجنة التنفيذية للحزب بتطوان، وقد ساهم في إطار مهمته، وبصفته التنظيمية، في بلورة عدد من القرارات والمبادرات المهمة، نذكر على سبيل المثال:

•حضوره في اجتماع اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطني يوم 2 مارس 1938م، الذي تمت خلاله المصادقة على الصيغة النهائية ل "دفتر المطالب"، الذي قدم للخليفة مولاي الحسن بن المهدي، وإلى المقيم العام الإسباني "خوان بيكبدير"[19].

•على إثر سجن ونفي عدد من وطنيي الجنوب (محمد بن الحسن الوزاني، علال الفاسي، عمر بن عبد الجليل، أحمد مكوار، محمد اليزيدي) سنة 1937م، عقدت اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطني، التي كان عبد السلام الحضري عضوا فيها، اجتماعا تدارست فيه مستجدات الوضع الوطني، وأصدرت بلاغا جاء فيه:

- رفع مذكرة لسمو مولانا الخليفة، ولسعادة المقيم العام بشأن السياسة الاستعمارية بالمغرب، والمطالبة بإطلاق سراح المسجونين [وعودة] المنفيين وتنفيذ المطالب.

- رفع رسالة احتجاج إلى بريطانيا ضد سياستها في فلسطين.

- تقديم رسالة احتجاج إلى جلالة السلطان، وأخرى لفرنسا، ضد فتح باب الهجرة من المغرب أمام اليهود»[20].

وموازاة مع نشاطه الحزبي ذا الطابع الوطني كان السيد عبد السلام الحضري يعمل على الواجهة الأدبية والصحفية، حيث وجدنا عددا كبيرا من المقالات ذات المضمون الأدبي

---

19 - بدون كاتب، اجتماع اللجنة التنفيذية، الحرية، عدد 43، 3 مارس 1938.

20 - بدون كاتب، "وصف عام لحفلات الجهاد الوطني"، الحرية، عدد 36، 8 دجنبر 1938.

والديني والسياسي، كما نشرت له صحف المرحلة نصوصا لبعض الخطب التي ألقاها في مناسبات تعبوية وتحميسية واحتجاجية مختلفة[21].

وقد توفي السيد عبد السلام الحضري يوم 25 دجنبر 1998م بمدينة طنجة، ودفن في مسقط رأسه شفشاون.

21 - مثلا: المقالات الآتية: *الحياة الفاضلة صراط الحياة المستقيم*، الريف، 7 يونيو 1937. *كيف تطبق فرنسا معاهدة الحماية في المغرب*، الريف، 14 دجنبر 1937. *قوميتنا تراث خالد*، الريف 29 مارس 1938. *لا نريد إلا حقا*، الريف، 15 أكتوبر 1937.

لا غالِبَ إلاّ اللّه

الأديب الموريسكي محمد بن التهامي ابن عمرو الأوسي الرباطي- معارضته لقافية ابن الونان (الشمقمقية)

الدكتور محمد حمزة بن علي الكتاني

يسعدني في هذا الحفل المبارك، الذي هو حفل تكريم علم من الأعلام الأكاديميين، وأديب من الأدباء، ومحقق من المحققين، ومترجم من رجالات التراجم الكبار؛ أستاذي ومجيزي الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة. التعريف بأحد أعلام المغرب الكبار، الذين تركوا بصمة مهمة في التاريخ العلمي والأدبي المغربي، وأحيوا فينا مثال الشعراء الفطاحل الذين يفاخر بهم المغرب المشرق؛ كأمثال ابن مجبر وابن المرحل الفاسيين، وجعونة ابن الأجرب الكلابي، وابن دراج القسطلي... وأمثالهم... بل في شعره ما يشبه الوحشي من الكلام، كما كان دارجا في شعر الجاهلية؛ كشعر الشنفرى الأزدي، وتأبط شرا، وغيرهما...

إضافة لكونه أندلسيا، من جذور الأدباء والفصحاء، بل موريسكيا، من بيت تمسك أهله بأرض الوطن ما يزيد عن قرن بعد سقوط غرناطة، واستطاعوا أن يحفظوا لمجتمعهم خصوصيته التي اكتسبوها من نحو مائة وعشرين عاما من الجهاد، والتستر الديني، والامتزاج التام مع القشتاليين والأرغونيين وغيرهم من الأعاجم المستعمرين، علاوة على ممارسة الشعائر النصرانية قسرا، والتشبع بها تقية في العادات والمعارف والعبادات...

ثم إنه من جذور عربية قحة، تنتمي لقبائل الأوس اليمنية القحطانية، التي استوطنت المدينة المنورة، وظهر منها هي وجارتها الخزرج، الصحابة الأنصار، الذين أثنى الله تعالى عليهم في كتابه الكريم، ورسوله صلى الله عليه وسلم...

أديبنا اليوم هو: العلامة القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد التهامي ابن عمرو الأوسي الأندلسي، صاحب القصيدة القافية الشهيرة، في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومعارضة قصيدة ابن الونان "الشمقمقية"...

تاريخ الأدب العربي الموريسكي بالرباط:

من الباعث للفضول العلمي، واللافت للنظر؛ البحث في الأدب العربي عند الأندلسيين المُهجرين من الأندلس للمغرب، نظرا لأهميته في الدراسات الأدبية والتاريخية، ولخصوصية هذه الشريحة المجتمعية، وارتباطها بالتاريخ الأندلسي الحافل بالآداب والفنون.

وهذا الجانب وإن كان بكرا لم يعتن بخصوصه أحد، سوى ما نجده مفرقا في كتب محمد بن مصطفى بوجندار، ومحمد بن علي دينية، ومحمد بن عبد السلام السائح، وعبد الله الجراري، وأمثالها من كتب التاريخ والترجمة؛ بالرغم من ذلك؛ فإن مادته كثيرةٌ، وخام، وسهلة المأخذ والتنقيب بالنسبة للباحث المجد... وحتى الموجود من تلك الأبحاث؛ لم يتطرق للأدب القشتالي الإسلامي ضمن أدبيات الموريسكيين، بخلاف الأبحاث التي كتبت حول أدب المدجنين في أرض الأندلس.

غير أن عالم الرباط محمد بن عبد السلام السائح خصص بحثا في الموضوع في كتابه "سوق المهر، إلى قافية ابن عمرو"، تطرق فيه إلى أدباء الرباط، وساق جملة من شعرهم ونثرهم، ولفت الانتباه إلى ضرورة البحث فيه، ويهمنا في ذلك الآن: النتيجة التي خلص إليها؛ وهي قوله: "الأمر الذي لا أرتاب فيه؛ هو: أن على شعر أدباء مدينة المنصور – الرباط – مسحة الشعر الأندلسي وطابعه الجذاب، وذلك مما يدل على أن سجايا الأندلس لازالت تفيض على قلوبهم، وأن أشعتها لازالت تنعكس من نفوسهم!".

مصادر ترجمة ابن عمرو الأوسي:

اعتنى المؤرخون بترجمة الأديب ابن عمرو منذ القدم، ولكن أهم تراجمه كانت لأعلام القرن الذي تلا حياته رحمه الله؛ فقد ترجمه مؤرخ الرباط محمد بن مصطفى بوجندار في

"الاغتباط بتراجم أعلام الرباط" ص342، ترجمة طنانة، ربما أوسع وأشمل ترجمة له، كما ترجم له مؤرخ الرباط أيضا محمد بن أحمد دينية في "مجالس الانبساط بتراجم أعلام الرباط" ص148، والحافظ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني أفرد له ترجمة علمية حديثية في "فهرس الفهارس والأثبات" (1/ 279)، ومؤرخ المالكية محمد بن محمد مخلوف في طبقات المالكية؛ المسمى: "شجرة النور الزكية" ص382، ومؤرخ مراكش العباس ابن إبراهيم التعارجي في "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام" (6/ 202)، ومؤرخ المغرب عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة في "إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع" ص144، وخير الدين الزركلي في "الأعلام" (7/ 299)، وكحالة في "معجم المؤلفين" (11/ 202). كما ترجم له ترجمة متوسطة علامة الرباط محمد بن عبد السلام السائح في شرحه لقافيته الشهيرة المسمى: "سوق المهر، إلى قافية ابن عمرو"، ص4، وفي كتابه "المنتخبات العبقرية، لطلاب المدارس الثانوية"، غير أنها تراجم تتحلى بالنقد الأدبي والتحليل.

فيظهر جليا مدى اهتمام المؤرخين بترجمة هذا الأديب الكبير، وهو ما يعكس بوضوح مدى إشعاعه، بحيث ترجم له بلديه الرباطي، وترجم له المراكشي، وترجم له الفاسي، وترجم له من اعتنى بتراجم المغاربة، ومن اعتنى بتراجم الأدباء، ومن اعتنى بتراجم المحدثين، ومن اعتنى بتراجم الفقهاء، ومن اعتنى بتراجم المؤلفين، ومن اعتنى بتراجم مشاهير العرب ورروادهم...فهي نواح متعددة لشخصية أديبنا التي اعترف له بها الآخر قبل أن نزعمها نحن، وصورة مشرقة لمدى وسع ثقافته واهتماماته التي تركت بعده بصمة واضحة داخل مدينته، وبلده، وخارجها لتمتد إلى عموم العالم العربي والإسلامي...

ولادته ونشأته:

لم يذكر مؤرخوه – باستثناء محمد بن عبد السلام السائح – مكان ولا تاريخ ولادته بالضبط، وإن كنت أرجح أن ولادته كانت بمدينة الصويرة، على شاطئ المحيط الأطلسي،

نظرا لكون والده القاضي التهامي ابن عمرو سكن بها قاضيا إلى أن توفي..غير أن عبارة العلامة السائح في "المنتخبات العبقرية": "ولد ونشأ في رباط الفتح، وتلقى عن جلة من أهل العدوتين وغيرهم"، تدل صراحة على أنه ولد بمدينة الرباط...والله أعلم.

كما أنني أرجح أن ولادته كانت بعد سنة 1190هـ،وقبل سنة 1195هـ، نظرا لوفاة والده سنة 1195هـ، وحياة والدته عند حجته التي توفي إثرها، سنة 1243هـ، ووصفِه حالَه في تقييد بخطه لرحلته الحجية هذه بقوله: "إني لما آذنَت الشبيبةُ بالتولي، واقتضى المشيبُ التعلُّق بالفضائل والتحلي، ولم أزل منكمشا على غي الصِّبا، ولاقتناص سواد البطالة منتصبا"...إلخ..ما يدل على أن سنه كان يدور حول الخمسين من العمر...

فيكون أديبنا نشأ يتيم الأب، محتضَنا من طرف والدته الشريفة المبجلة السيدة آمنة بنت عبد القادر الشريف الشرشالي البطاوري؛ من أحفاد الإمام أبي مهدى عيسى الغبريني الشرشالي، شيخ الإمام ابن عرفة.

وقد أخذ العلم عن عيون أعلام الرباط: كالقاضي أحمد حكم، والقاضي عبد الرحمن السرايري، والقاضي أبي عبد الله الغربي، وبسلا أخذ عن: الفقيه عبد السلام حرْكات، وبوازان عن إمام المذهب محمد الرهوني، وبتطوان عن عالمها الجنوي الحسني، وبفاس عن العالم الأديب عبد الواحد الفاسي الفهري، وشيخ جماعتها أحمد بن التاودي ابن سودة، والعلامة عبد القادر ابن شقرون، وفرضيها الأديب محمد بن أحمد بنيس؛ شارح الهمزية... وغيرهم... كما أخذ عن جمهرة من العلماء في حجته التي توفي إثرها، على طول طريق سفره، وأجازهم وأجازوه حسبما فصله الكتاني في "فهرس الفهارس".

من هنا يظهر لنا التكوين العلمي المتميز للأديب ابن عمرو، ورحلته على طول أطراف المغرب لطلب العلم والنهل منه، بل لم يشبع نهمته حتى خرج من المغرب قاصدا المشرق للحج وطلب العلم كما قال في رحلته: "قاصدا أداء فريضة الحج، وطلب العلم حيث كنت"... ونظرا لمكانته ورفعته؛ فقد قال عنه الحافظ عبد الحي الكتاني في "فهرس

الفهارس"بعد أن وصفه بالإمام العالم الأديب، اللغوي الأصولي، المسند الرحال...: "وقد وقفتُ على فهرسة المترجم، ورحلته الحجازية، وكناشته، وديوان شعره، والفهرسة في كراريس مبعثرة مفرقة أياديَ سبا، ولو تمت وأُخرجت؛ لكانت مفخرة للرباط والرباطيين؛ فإن الرجل كان يتيمة عقدهم، ونادرة صقعهم"...إلخ.

ولذلك نرى مترجميه - خاصة الرباطيين – أثنوا على أخلاقه كثيرا، وخصاله، وعددوا مزاياه وعطاءاته المتكاثرة، التي تدل على دين متين، وعلم عميق، وأخلاق رفيعة، وطبع نبيل...

ولم يهتم الأديب ابن عمرو بالوظيف، بل زهد عنه، علما أن والده كان من علماء بلاط السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وألف شرحا على الأربعين النووية بأمره، واستقضاه الملك المذكور بمدينة الصويرة..ولكن الابن اكتفى بالتدريس، ونشر العلم، وبثه...سوى أن الفتاوى كانت ترد عليه، والقضاة يزفون لمجلسه، فكان يفتي ويقضي من غير خطة، في مجالس مشايخه وبعدهم. وما من شك أن فتاواه وأحكامه لو جمعت؛ لكانت في مجلد حافل على الأقل...

ابن عمرو الأديب:

أهم عِلم اشتهر به محمد بن التهامي ابن عمرو الأوسي – رحمه الله تعالى – هو الأدب وفن الشعر، فقد كتب ونظم، وأرجز وأسجع، وطارت بأشعاره الركبان، وقرظها له أعلام البلاغة والبيان..

ومما يدل على بيانه وبلاغته؛ تكليفه بكتابة بيعة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، ملك المغرب حينه، وذلك سنة 1238هـ/ 1822م، فكان هو الكاتب لها، والناسج لبردها..ومعروف أن صيغ بيعة الملوك تكون دقيقة العبارة واضحتها، عالية النسج والأسلوب والرونق.

قال الأديب بوجندار: "كان كثير المطالعة في كتب الفقه والنوازل والأحكام، واللغة والعروض، والشعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم آناء الليل وأطراف النهار، لا يفتر عن المدح وتلفيق الشعر فيه منذ ملك الملكة فيه، إلى أن قضى الله عليه بالوفاة رحمه الله"..

وقال السائح: "نبغ في فنون الأدب، وصناعتي النظم والنثر، حتى أصبح نسيج وحده، وصدْر أدباء مصره وعصره، ورُزق من جودة القريحة وصفائها، وتدفق الفكرة وانبثاقها؛ ما بهر به وظهر، وترامى صيته واشتهر، وأشعت أشعةُ فكره إلى معاني الشعر ومغازيه، فتناولها من عقر موقعها، وأكنها بجنابه، واستخدمها بين يديه، فأصبحت تتبارى في السبْق لإشارة بَنَانه...وبالجملة؛ فما أحراه بقول البديع في وصف زهير: يذيب الشعر والشعر يذيبه، ويدعو القولَ والسِّحر يُجيبه!. وناهيك بهمة رجل انبرى لمعارضة ابن الونان، لمّا ألقى قافيته البديعة للميدان؛ وقال:

من كان يرجو من سواي مثلها رجا من القِربة رشْح العرقِ

فانبرى لمعارضته قَرْنٌ يفخر ويصول، ولا كالحُباب بن المنذر يوم يقول: أنا جُذَيلُها المحكَّك، وعُذَيقُها المرَجَّب... فتجاولا في اللغة والغريب، وتسابقا في المدح والنسيب، واقتفى كل منهما قافية القاف، وبان أن كلا عن صاحبه قاف، بيد أن الناظم – ابن عمرو – حاز السبق المبين، بمدح خير العالمين، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم"...إلخ.

وقد تقدم أن والد أديبنا كان من حاشية السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وعلماء بلاطه، وأنه استقضاه مدينة الصويرة وربما غيرها، كما أن أديبنا كان من علماء العصر السليماني، وكانت فتاواه تحظى بتقدير واعتماد من طرف السلطان المولى سليمان رحمه الله، ولما توفي وبويع ابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام؛ كان أديبنا هو كاتب بيعته وناسج بردها كما سبق التنويه إليه...إذًا؛ استمرت علاقة هذه الأسرة بالملوك العلويين، ثلاثة ملوك على الأقل إلى زمن أديبنا رحمه الله، وهو ما يدل على أن والده كان على صلة بشخصية

أخرى حظيت بثقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ثم استمرت العلاقة إلى ابنه؛ وهو: محمد الونان التواتي، المعروف بأبي الشمقمق، والذي كان نديم السلطان المذكور، وهو والد الأديب البليغ الكبير أحمد بن محمد ابن الونان؛ صاحب القافية الشهيرة التي مدح بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وتبارى الشعراء والأدباء في معارضتها وشرحها.

معارضة ابن عمرو الأوسي لقافية ابن الونان:

ذكر المؤرخون أن والد الشاعر ابن أبي الشمقمق كان نديما لسلاطين ثلاثة: المولى إسماعيل، وابنه المولى عبد الله، وحفيده سيدي محمد بن عبد الله، ولما توفي؛ أنشبت يد الحسد أبناءه، فأبعدهم أحد الوزراء عن مجالس السلطان وأقصاهم، حتى ضاق بهم الحال، خاصة ابنَه أحمد الذي كان أديبا مُفلقا، وشاعرًا مفاخرا، فأنشد الأخير قصيدةً رائعة على طريقة المعلقات، يمدح بها الملك المذكور، ويجعلها وسيلة لدخول بلاطه، واستعادة مكانة أبيه منه...غير أن حاشية الملك كانت له بالمرصاد، ومنعته من ذلك..

فتربص ابن الونان موكب الملك المذكور، وقام على كدية، ثم نادى بأعلى صوته: "يا سيدي سبطَ النبي؛ أبو الشمقمق أبي!"...فعرفه الملك، وأمر بإحضاره، فلما مثُل بين يديه عرَّفَه بنفسه، وأنشد قصيدته الطنانة التي أصبحت - فيما بعد - مثالا يعارَض ويُشرح ويُحتذى به، إلى الآن، ومطلعها:

مَهْلاً على رِسْلِكَ حَـادِي   الأَيْنُقِ وَلا تُكَلِّفْهَا بِمَا لَمْ تُطِقِ

فطَالَمَا كَلَّفْتَهَا وسُقْتَهَا سَوْقَ   فَتًى مِنْ حَالِهَـا لَمْ يُشْـفِـقِ

وقد ضمنها من أنواع البلاغة، وأخبار العرب، وفنون الأدب، ووحشي اللغة وغريبها، والتفنن في الوصف والاستعارة، والكناية؛ ما قل أن يجتمع في قصيدة من قصائد المتأخرين، مع سلاسة عبارة، وجمال إشارة، وعمق معرفة وثقافة، دعته أن يتحدى أديبا أن يأتي بمثلها أو قريب منها؛ قائلا:

ما لِجَرِيرٍ وجَمِيلٍ مِثْلُهـــا   في غَزَلٍ وفي نَسِيبٍ مُونِقِ

فلوْ رَآهَا الأصمعيُّ خَطَّهَا   كيْ يستفيدَ بِسَوَادِ الحَدَقِ

وقد اعتنى بشرحها أعلام قديما وحديثا؛ منهم: أحمد بن خالد الناصري بكتاب "زهرات الأفنان من حديقة ابن الونان"، والمكي البطاوري بشرح حافل في مجلدين سماه: "اقتطاف زهرات الأفنان، من دوحة قافية ابن الونان"، ومحمد بن عبد السلام السائح، وعبد الله كنون، ومن المعاصرين أحمد بن محمد الأمين الجكني الشنقيطي... كما عارضها أعلام، قديما وحديثا، منهم في القديم: العلامة النسابة إدريس العلوي الفضيلي، ختم بها كتابه "الدرر البهية في الأنساب الحسنية والحسينية"...

وقد استعصت على الشعراء معارضة هذه القصيدة لما تضمنته من فنون البلاغة، والثقافة العالية التي تحتاج إلى أديب موسوعي يتقن معارضتها، خاصة وأنها استعرضت تاريخ العرب من الجاهلية إلى الأندلس إلى عصره، وهو ما جعل أمرَ مُعارضتها ضربًا من التهوُّر وإلقاءً بالنفس إلى التهلكة...

غير أن أشهر معارضة لهذه القصيدة، وأقواها لغة ونظما، وأوسعها ثقافة: قصيدة الأديب الأندلسي الموريسكي محمد بن التهامي ابن عمرو الأوسي، فقد أضاف للمنافسة معيارا أقوى وأصعب، وخصها بوحشي اللغة ومستصعب مفرداتها، وصاغ بذلك فنون الشعر من نسيب ووصف وحماسة وهجاء، واستعارة وكناية، وجناس وتشبيه، وغير ذلك، بحيث يخيل للسامع العادي بأنها لغة غير اللغة العربية.

وقد بز شاعرنا ابن عمرو الشاعر ابن الونان؛ بأن جعل قصيدته في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، لا في مدح ملك من الملوك، ولا رئيس من الرؤساء، ليحصل الإجماع على سبقه في مقصدها، وإن كان السباق بينهما كسباق الفرسان، سجالا بينهما.

قال العلامة السائح في "المنتخبات العبقرية": "فتجاولا في اللغة والغريب، وتسابقا في المدح والنسيب، واقتفى كل منهما قافية القاف، وبان أن كلا عن صاحبه قاف، بيد أن

الناظم – رحمه الله – حاز السبق المبين، بمدح خير العالمين، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم، وإن قصُرت به خُطى البراعة عما أبدع ابنُ الونان من روائع الحِكَم، ونوابغ الأمثال، وصبًّا على قوالب جِيد الصناعة. وأما قافيته؛ فقد أكثر فيها من الغريب، وتوخى الوقوع على حافر ابن الونان، والطبعَ على غراره في عدة أساليب وفنون".

"ومن ذلك أنه: شبَّب في مستهلها بذكر الفلوات الموحشة المترامية الأرجاء، والأوصاف البديعة للأينُق، وأن الحادي أبى إلا أن يَذْرَعَها عَبَثًا، ويقذف فيها بتلك الأينُق من غير إبقاء عليها ولا رأفة، وأسهب في التنوع في تأنيبه، والتلطُّف في عتبه وتثريبه، ثم انتقل إلى التغزل بذكر أوصاف الحُسن في النساء، وغيرهن، ثم إلى فن الحماسة والعرافة والافتخار، ووصْفِ أدوات الحرب والخيل".

"ثم تخلَّص إلى المقصود الأعظم من مدح محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فمدحه، ومدح الصحابة الكرام، واستشفع به عليه السلام، وشكا إليه ما مسه من الوصَب والضنا، والفاقة، وما لقي من أهل زمانه مما ليس لحمله طاقة. ومن دقائقها التي ترقص وتطرب: أنه لما تخلص إلى مدحه صلى الله عليه وسلم؛ تخلص من وعر تلك الألفاظ الوحشية الموحشة، إلى ألفاظ ناصعة تذوب لُطفا وعذوبة، فكأن انشقاقَ فجر الأوصاف المحمدية، والشمائل النبوية؛ أفاض عليها من أنواره، وكساها من حُلل جماله، فتلألأت أنوارُها، وابتسمت ثغورها، وهذا مما يُنبيء عن فصاحته، وحُسن ذوقه وأصالة أدبه". انتهى كلام السائح على طوله...

قلت: والعجب ليس في الكم الهائل من وحشي الكلام الذي استعمله الشاعر؛ ولكن ما صاغ به من المعاني، والأمثال، والعادات العربية، وأوصاف الدواب وعاداتها، والاستعمالات البلاغية والأدبية، فكأنها لغته الأصلية، وعباراته العادية... وذلك ما لا يتحصل إلا لأديب مثقف ثقافة عربية عالية، ومزود بمعرفة تاريخ العرب وعاداتهم وتقاليدهم، فالإقدام على شرح هذه القصيدة وتوضيحها يعتبر أمرا غاية في الصعوبة والتعقيد.

وهذه القصيدة لا نعلم أحدا تجرأ على معارضتها، أما شارحوها؛ فهما اثنان يُعتبران من الطبقة الأولى لأعلام المغرب في وقتها؛ وهما: عالم الرباط وقاضي فاس محمد بن عبد السلام السائح في كتابه: "سوق المهر إلى قافية ابن عمرو"، وحافظ الرباط ورئيس مجلس الاستئناف الأعلى بها محمد المدني بن الغازي ابن الحسني في كتابه "الفتح القدسي على قافية الأوسي"..

وحتى لا أطيل؛ أسوق قطعا من قافية الأديب ابن عمرو الأوسي، لعلها تصور قيمة قصيدته ومنزلتها، وبعض خصائصها..

يقول في مطلعها، وهي من بحر الرجز:

مسحتَ في الإدلاج كل خَيْفَقِ يَرَّاءَ سَبْسَبٍ يبابٍ سَمْلَقِ

وجبتَ كـل طاسم سَمَهْــدَرِ مَتْنٍ دَمُوسٍ واسعِ المُخْتَرَقِ

يَغْتَالُ غِيلانَ الفَلا مِن سَنَـدٍ شِنَاظُهُ مُستمسِك بالأفُقِ

وهي في 175 بيتا، وإن كانت تنقص عن قافية ابن الونان بنحو مائة بيت...

ويذكر الأديب في بعض تقييداته بأن سبب نظمه لهذه المعارضة أنه أصيب بداء النقرس في مفاصله، ولم ينفع فيه علاج، إلى أن جاءته يوما امرأة تسأل عنه وعن مرضه، وأخبرته أنها رأت في المنام رجلا يقول لها: "أرشدي فلانا لمدح السلطان، فذاك دواؤه".. ولما قص الرؤيا على بعض أهل العلم؛ قال له: "عليك بالتعلق بالجناب النبوي؛ فذاك المراد". ونظم القصيدة المعارضة المذكورة، فكانت سبب شفائه.

ويقال وقد وجد بخطه أيضا: إنه لما وصل إلى قوله فيها: الحمد لله الذي جعلها...وقف ولم يستطع الزيادة، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال له: "أين وصلت في قصيدتك؟". فأخبره، فقال له: "وما لك لم تختمه؟". فقال له: "لم أجد له تماما". فقال له: "تممه بهذا: بحُلة من مدحكم ونمرق"...

وفاته:

سافر أديبنا للحج سنة 1243هـ، وزار في طريقه مختلف البلاد التي مر بها؛ من تونس وليبيا ومصر، أما الجزائر فكانت تحت الاستعمار الفرنسي حينذاك، والتقى بأعلام تلك البلاد، وأخذ عنهم وأخذوا عنه، إلى أن حل بمكة المكرمة، واستطاب له المقام، وحج واعتمر، واستعد للسفر للمدينة المنورة، وزيارة مرقد النبي صلى الله عليه وسلم، فأصيب بداء ألزمه الفراش، إلى أن مات في مقتبل كهولته، مبكيا عليه من الناس، قبل سفره من مكة المكرمة، فصلي عليه بالحرم المكي، ودفن بمقبرة المعلاة، حيث مدافن الصحابة الكرام، وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها...

وبهذا أختم محاضرتي، وهي دعوة للاعتناء بهذا الأديب العالم الموسوعي، وبشعره، وما شرح به، نشرا، وتدريسا، وتعليما، والذي يمثل صورة واضحة للأدب الموريسكي في المغرب في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، حيث كان مايزال محافظا على هويته العربية الإسلامية، الممزوجة بالأثر القشتالي الواضح...وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه..

المراجع

- "الاغتباط بتراجم أعلام الرباط". تأليف: محمد بن مصطفى بوجندار.

- "مجالس الانبساط بتراجم أعلام الرباط". تأليف: محمد بن علي دينيا.

- "فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات". تأليف الحافظ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني.

- "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية". تأليف محمد بن محمد مخلوف التونسي.

- "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام". تأليف: العباس بن إبراهيم التعارجي.

- "إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع". تأليف: عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة.

- "الأعلام". لخير الدين الزركلي.

- "معجم المؤلفين". تأليف: أحمد رضا كحالة.

- "سوق المهر، إلى قافية ابن عمرو"، تأليف محمد بن عبد السلام السائح.

- "المنتخبات العبقرية، لطلاب المدارس الثانوية". تأليف: محمد بن عبد السلام السائح.

- "الدرر البهية في الأنساب الحسنية والحسينية". تأليف إدريس الفضيلي العلوي.

الحضارة الأندلسية وانصهارها في المجتمع المغربي
شفشاون نموذجا

د. أحمد مفريج
طبيب جراح- باحث في التاريخ

من العسير علي الإلمام بهذا الموضوع من كل جوانبه في دقائق معدودة لأن الموضوع ذو جذور وفروع إذ يتعلق الأمر بمسيرة حضارية وإنسانية ليس لها حدود لا في الزمن ولا في المكان بحيث استغرقت زهاء ثمانية قرون ولازال إشعاعها حاضرا إلى يومنا هذا.

ومعالم هذه المسيرة الحضارية بدأت بعدما استقر الحكم الإسلامي ووصلت إلى ذروتها أيام عبد الرحمن الثاني المعروف بعبد الرحمن الأوسط في القرن التاسع الميلادي واستمرت حتى سقوط غرناطة سنة 897 هجرية 1492 ميلادية تاركة وراءها إشعاعا حضاريا شمل العالم كله.

وما الازدهار الحضاري الذي ينعم به العالم اليوم إلا بفضل ما توصل إليه علماء الأندلس من نبوغ في شتى أنواع العلوم. حيث ازدهرت ازدهارا لا مثيل له سواء من الإنتاج أو في ظهور علماء أجلاء مقتدرين فألفوا الكتب واخترعوا واكتشفوا الكثير مما لم يكن معروفا من قبل فأسسوا الجامعات وبنوا المعاهد والمدارس وبنوا المستشفيات وأسسوا مدنا لازالت شاهدة على عبقريتهم وهندستهم المعمارية إلى يومنا هذا.

وكان لهم الفضل في إظهار كفاءات الإتقان وترك المجال للأفذاذ من العلماء فصهروها وأخرجوا منها هذه الحضارة المتميزة التي غيرت معالم الجزيرة الإيبيرية والدول الغربية من حياة البداوة والتخلف إلى حياة الحضارة والازدهار والتهذيب، بحيث يقول المستشرق

الهولاندي "دوزي" في كل الأندلس لم يكن يوجد رجل أو امرأة أمية بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة في أوربا معرفة أولية إلا الطبقة العليا من الرهبان.

ويذكر أنه بعد سقوط غرناطة أحرق الكردينال خيمينس ذي ثينيروس ما يزيد عن مائات المخطوطات أو أكثر.

جوانب الحضارة الأندلسية:

أما معالم الحضارة الأندلسية فقد شملت كافة الميادين الفكرية والإنسانية والاجتماعية بحيث شملت: - اللغة العربية والآداب والفلسفة والتعليم والجامعات، وما الأديب ابن حزم وكتابه طوق الحمامة إلا دليلا على ذلك

- الجغرافية والتاريخ والبحث العلمي (ابن حيان القرطبي والرازي ولسان الدين بن الخطيب)
- علم الفيزياء والفلك والرياضيات والكمياء
- العلوم والفنون البحرية
- الصناعات بفروعها كصناعة الورق، النسيج، المعادن، والجبس والخشب والزجاج والفسيفساء والخزف واستخراج العطور.
- الزراعة والبستنة
- الطب، الصيدلة والبيطرة
- فن المعمار والهندسة المعمارية

أما في علم الموسيقى فمن تألق نجمهم وكثر عطاؤهم أذكر على سبيل المثال: حسن بن نافع المكنى بزرياب. فهو الذي عرف الموسيقى بأنها "ذر مفصل" ومن هذا التعريف أخذ الغربيون حروفها : دو ري، مي، فا، صولاصي.

وهو الذي وضع الأسس الثابتة للموسيقى الأندلسية، وهو الذي أسس أول معهد للموسيقى في الأندلس.

العمارة الهندسية:

يمكن اعتبار الفن المعماري الأندلسي قمة في التألق وما قصر الزهراء ومسجد قرطبة وصومعة ومسجد خيرا لدة وبرج الذهب بإشبيلية وقصر الحمراء بغرناطة إلا دليلا قاطعا لما وصلت إليه الفنون المعمارية بهذه الديار ولازالت قائمة إلى يومنا هذا تجلب إليها الزائرين من كل أصقاع العالم.

الطب:

أما في علم الطب فحدث ولا حرج، فقد خلفت فيه عبقريتهم التي لا حدود لها وذلك باعتراف الجميع بحيث ابتكروا طرقا للعلاج جديدة لم تكن معروفة ولايزال بعضها معتمدا حتى الآن ومن بين من تألق نجمهم وكثر عطاؤهم أذكر على سبيل المثال لا الحصر: الطبيب أبو القاسم الزهراوي القرطبي صاحب الموسوعة الطبية" التصريف لمن عجز عن التأليف" وهو مؤلف يعتني بعلوم الجراحة وقد بقيت كتبه معتمدة في جامعات أوربا طيلة القرون الوسطى. وهو الذي توصل إلى استخراج الحصاة من المثانة وتفتيتها وإجراء عمليات في العين والولادة.

ومنهم كذلك الطبيب الحكيم ابن زهر الذي جمع بين الطب والأدب والفلسفة حتى سمي بحكيم الأندلس.

وهناك أطباء آخرون اشتهروا في هذا الميدان: كابن باجة وابن رشد وابن طفيل والرازي وغيرهم. وتركوا لنا مؤلفات اعتمدت في جامعات أوربا الغربية إلى عهد قريب.

الهجرة الأندلسية:

بدأت الهجرات الأندلسية بهجرة داخلية، بحيث كلما احتل النصارى إحدى أراضيهم كان أغلب الناس يلجؤون إلى المناطق التي لازالت تحت حكم إخوانهم المسلمين.

وهكذا استمر الحال حتى انحصر الحكم الإسلامي في إمارة غرناطة الشيء الذي جعل هذه الإمارة موطنا للعارفين في كل أصناف العلم والمعرفة.

وهكذا استمر الحكم الإسلامي مدة أكثر من قرنين ونصف حتى سقطت في يد ملوك الكاثوليك فرناند الخامس وإيزابيلا الأولى سنة 897هـ موافق 1492 م وهناك بدأت الهجرة الحقيقية إلى خارج الأندلس ويمكن القول أنها سلكت اتجاهات مختلفة يمكن حصرها فيما يلي:

- بعضهم هاجر إلى الإمبراطورية العثمانية لما كانت تتمتع به هذه الإمبراطورية من مكانة سياسية وإسلامية.
- وبعضهم لا سيما الحرفين والبحارة هاجروا مع كريستوف كولومب. وقد استخدم الكثير منهم في تجديف السفن الشراعية التي كانت تربط المملكة الإسبانية بأمريكا اللاتينية.

أما الهجرة التي استوعبت أكبر عدد من الأندلسيين فهي التي قصد أصحابها شمال إفريقيا وعلى الخصوص الذين توجهوا إلى المغرب نظرا للروابط والعلاقة التي كانت تربط المغرب بالأندلس خلال ثمانية قرون وكذلك لعامل القرب من الشواطئ المغربية وأغلب هؤلاء استبدلوا أملاكهم بالسفن والقوارب فنزلوا في شواطئ المغرب الشمالية وآخرون نزلوا بشواطئه الأطلسية حاملين معهم أبناءهم وأغراضهم الثمينة وصناديق مملوءة بالمخطوطات العلمية.

فحطوا الرحال في أهم المدن كتطوان وطنجة وسلا والرباط ومراكش وفاس التي حل بها العدد الكبير نظرا للسمعة التي كانت تحضى بها عند الأندلسيين عامة.

أما الذين نزلوا في الشواطئ المغربية من البحر المتوسط كواد "لو" وتارغة والجبهة فقد انتقل الكثير منهم إلى مدينة شفشاون والنواحي المجاورة سيما غمارة وقراها كبني رزين مثلا التي وجد فيها عدد كبير من المخطوطات الأندلسية.

أما الشريحة التي استقرت في شفشاون فإن ذلك يعود إلى عوامل التشابه بينها وبين غرناطة كسلاسل الجبال المحيطة بها، والتضاريس والمناخ أضف إلى هذا حسن استقبال الساكنة التي استوطنت المدينة قبل ذلك.

أما العائلات التي استوطنت هذه المدينة فهي كثيرة ومتعددة انقرض البعض منها وآخرون لازالوا يعيشون فيها إلى الآن بأسمائهم وذكريات أجدادهم وبالصنائع والحرف التي لازال الكثير منها يزاول إلى الآن ومن بين هذه العائلات التي استقرت بهذه الحاضرة أذكر البعض منها على سبيل المثال لا الحصر : عائلات : الطبال، الحضري، العاقل، البيطار، الغراندي، الغرناطي ابن عزوز، النايا، القشتول،، بوعسل، البنواينو، الصغير، مفريج.

وفي هذه الحقبة كان إقليم شفشاون يعيش حركة ثقافية وصوفية نشيطة فانصهر الجانبان انصهارا مثاليا واجتماعيا متكاملا فكسبوا بذلك لهذه المدينة وإقليمها سمعة طيبة داخل وخارج حدودها الشيء الذي جعل علماء فاس ومراكش وشفشاون يتبادلون الزيارات المتتالية من أجل العلم والمعرفة وكسب المودة بعضهم لبعض وكانت أغلب هذه العائلات على درجة كبيرة من الكفاءة العلمية والأدبية والفنون المعمارية والحرفية.

فكان فيهم البياطرة والصيادلة والعشابون والأطباء والحرفيون المهرة في كل أنواع الفنون كالنجارة وزخرفتها وفنون نقش الجبس وصناعة الفسيفساء والخزف وصناعة الأواني الفخارية وصناعة النسيج كالصوف والحرير وصناعة الجلد واستخراج العطور من الورود والزهور.

ومن الصناعات التي تألقت وازدهرت ازدهارا كبيرا هي إنتاج الجلاليب والقشاشيب والأغطية والمناديل الصوفية بجميع أصنافها ونسيج الكتان النباتي.

وكان يوجد إلى عهد قريب أكثر من ألف صانع يشتغلون في ميدان حياكة النسيج المختلفة.

كما تألقت صناعة الحرير الطبيعي بحيث اعتنت كثير من العائلات بتربية دودة القز في منازلها، ولكن هذه الصناعة انقرضت في العقود الأخيرة، كما ازدهرت صناعة الأحذية التقليدية على اختلاف أنواعها للذكور والإناث كالبلغة والريحية والشرابيل.

وكان إنتاج أغلب هذه الصناعات المختلفة يصدر إلى كثير من المدن المغربية. لكن أغلب هذه الصناعات انقرضت أو هي في طريق الانقراض.

كما حظيت الفلاحة بعناية فائقة في كل جوانبها فتضاعف غرس الأشجار بكل فصائلها لاسيما أشجار الزيتون والبرتقال والفواكه المختلفة وزراعة الحبوب بجميع أصنافها وتربية المواشي.

وقننوا طريقة السقي حتى لا يحرم أي فلاح من سقي فدادينه.

أما في الميدان المعماري فقد بنوا كثيرا من المساجد والصوامع والزوايا في أغلب أحياء المدينة وبجانب كل منها بنوا كتابا قرآنيا لتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الدين الحنيف للنشء الجديد

كما بنوا عددا كبيرا من الرحى على طول نهر المدينة لتحويل البذور إلى دقيق كما بنوا الفنادق ومعاصر الزيوت.

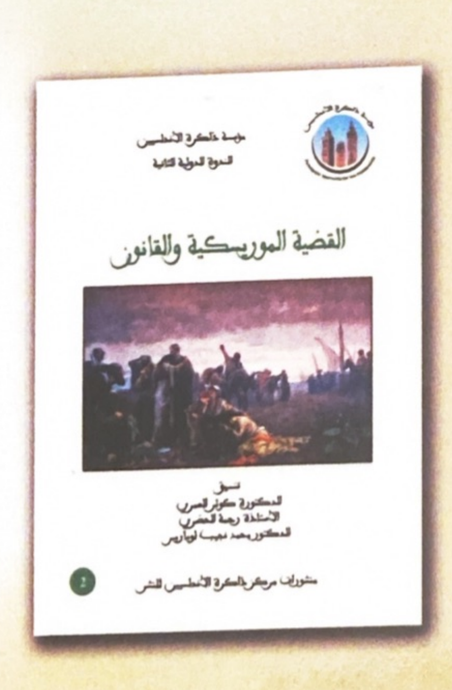
وقد تألقوا في فن البناء تألقا كبيرا سيما في بناء المنازل معتمدين في ذلك على أسس صحية ومناخية متوخين بذلك الوقاية من كثير من الأمراض الموسمية كأوجاع المفاصيل والزكام ومضاعفتها، فكانت كل منازل شفشاون بالقرميد ومدعمة بالخشب وحاجز البرشلة لحماية الساكن من البرد القارط في الشتاء والحرارة المرتفعة في الصيف. و كان إلى عهد قريب لا يوجد في المدينة ولو مسكنا واحدا بدون قرميد ولا زالت سقوف المساجد والزوايا شاهدة على ذلك.

أما عن فن الموسيقى فقد أصبحت شفشاون موطنا خصبا لكثير من فنونها:

- كالموسيقى الأندلسية التي أضاف إليها المغاربة الشيء الكثير
- والحضرة الشفشاونية
- والطقطوقة الجبلية
- والطرب الغرناطي
- إلا أن هذا الأخير انقرض هنا ولكن لازال موجودا في بعض الحواضر المغربية كوجدة وفاس والرباط.
- وكان سكان المدينة إلى عهد قريب يحفظون عن ظهر قلب كثيرا من النوبات الأندلسية.
- أما الحضرة الشفشاونية فقد كادت تنقرض لولا ظهور بعض السيدات التي أحيتها من جديد فلهم جزيل الشكر وعظيم الامتنان لهذا العمل الكبير.

والسلام







لا غالِبَ إلاّ الله



لَا غَالِبَ إِلَّا الله



مطبعة الأمنية - الرباط - 2019